



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المجلس الأعلى للغة العربية

جائزة اللغة العربية

«أبو العيد دودو»

2004

فلسفة الحضارة

في

فكر مالك بن نبي

قراءة جديدة

أ. بشير ضيف الله

منشورات المجلس - الجزائر 2005

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المجلس الأعلى للغة العربية

فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي

قراءة جديدة

دراسة حازت على جائزة اللغة العربية 2004م
الموسومة "أبو العيد دودو"

أ. بشير ضيف الله

الجزائر 2005

تبيعنا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا
قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا

ة لخصما قفساة

رف

زينا زب ظلاله حرة

ة يبعه ة دا رة

2005 قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا

"قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا"

قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا قبيلا

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية

- مجال الإنجاز العلمي:

العلوم الإنسانية والاجتماعية.

- عنوان الإنجاز العلمي:

فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي.

- إعداد: أ. بشير ضيف الله.

- السنة: 2004 م.

جميع الحقوق محفوظة

الإيداع القانوني: 2005-2448

ردمك: 4-9-9522-9961

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية

شارع أحمد باي-الجزائر

الهاتف: 021 23 07 24 /25

الفاكس: 021 23 07 07

ص.ب 575 الجزائر-ديدوش مراد

السنة 2005

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى روح "مالك بن نبي" مفكرا ومصالحا، وإنسانا..

المؤلف

داعية

.. لانسباغ د اعلي صوم ارفقه "رجان به شاله" و ١٩٤٤ رجا

سقاوما

قبل البدء

رجل مرّ من هنا... يختلف عن غيره من المفكرين بمنهجه العلمي الدقيق ورؤاه المتجذرة في العقلانية والسمو، لم يشأ أن يستبق الآتي، ولا أن يؤسس لفرضيات، أو تخمينات بعيدا عن الواقع، والمعطيات الراهنة، فالراهن وحده - في نظره - هو الذي يمنحنا فرصة تقصي، وتحسس ال... ما قبل، وهو أيضا الداعي الذي جعلنا نضع مقدمات لنتائج كفيلة باستشراف ال... ما بعد وبين هذا وذاك يخلق فكر "مالك بن نبي" الثاقب، حتى لقد عبر أحد الباحثين عن إعجابه بخاصيته الفكرية، فاعتبره سابقا لزمانه، منظرا مرموقا أعطى لكل مقام مقامه، وأوجد لكل حادث تفسيراً منطقياً قائماً على درء الأحكام المسبقة، أو الواهية، فأسس بذلك لمدرسة فكرية جديدة عقلا وروحا، جعلت الكثير من معاصريه ينتقدونه أو يهمشونه لأسباب واهية وأخرى لكونه "جزائري"! نعم لكونه جزائريا بالدرجة الأولى، ومن شمال أفريقيا بالدرجة الثانية.

لقد طرح هذا التساؤل مرارا:

ماذا لو كان "بن نبي" مشرقيا؟ هل كان سيغيب ويلغى من حسابات الحركة الفكرية العربية الإسلامية رغم اختلاف

توجهاتها ومرجعياتها؟ أم أنّ الفكر مرهون بمقاييس جهوية وإقليمية، وربما حتى استعمارية؟ فلقد حاول البعض أن يشكك في قدرات "بن نبي" واتهامه بميوله نحو الحضارة الأوربية وأوجدوا تفسيراً لذلك كون الجزائر عاشت حقبة استعمارية طويلة في إشارة إلى إمكانية طمس هذه الهوية، وكأنها الدولة العربية الوحيدة التي عانت من ويلات الاستعمار فهل ذنب "مالك بن نبي" أنه جزائري؟

إنّ "ابن نبي" من خلال قراءتنا الجادة لطريقته المميّزة في التحليل والتعليل، وقدرته على النفاذ إلى دقائق الأشياء تخوله أن يكون في الدرجة الأولى من المفكرين القلائل الذين عرفتهم البشرية، فهو مفكر عالمي بآتم معنى الكلمة، أوجد فضاءات حضارية، وإجابات لأسئلة الراهن الحضارية التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء، لأنّ الأصل في الحضارة هو التفكير الجماعي غير المحدود والهادف إلى المجاوزة، والانتقال بالفرد من عزلته إلى الطرف الآخر من المعركة التي تشترك فيها البشرية، إلى الشعور بضرورة التنسيق مع الآخر والتعاون معه فالحياة لنا جميعاً، والحضارة طموح مشروع لكل البشرية وإن اختلفت الروافد، والمرجعيات إلا أنّ الغاية واحدة، والمطلب واحد وفي ذلك مشهد آخر غير المشاهد ذات الفكرة المحدودة التي ميزت المسار الفكري العربي، والإصلاحي خصوصاً وهنا مكن الفرق.

إنّ الفترة التي جاء فيها هذا المبدع لم تكن لتتناسب مع ما قدمه من أفكار وتفسيرات ومقدمات فاعلة، وأحياناً

استشراافية، فمحيط الأمة الذي كان محصورا في صراعات واتجاهات فكرية مختلفة، وإن كانت تتبنى المطلب الإصلاحى وترى أي فكرة خارج هذا الإطار محكوما عليها بالإجهاض رغم أن المعركة الحقيقية كانت أكبر من ذلك، وأعمق، إلا أن هذا لم يمنع "مالك بن نبي" من تثمين بعض الجهود التي قام بها "محمد عبده" في مصر و"ابن باديس" في الجزائر، ويممّ هو إلى الطرف الآخر من المعركة، إلى الأفكار الناجعة والفاعلة، والمؤسسة لفعل الحضارة المفقود والتي بدأت الدراسات تتناوله بشيء من الاهتمام، والعناية، لأن هؤلاء أدركوا حقيقة ما أتى به "ابن نبي" والواقع فرض ذلك فرضا. «إذن فالواقع يفرض العودة إلى السؤال الحضاري.. سؤال الفاعلية، سؤال النهضة، وهذا هو سؤال "ابن نبي" الذي لم يستمع إليه معاصروه جيدا لذلك فالزمان الآن زمانه..» كما يعبر عنه الأستاذ "محمد شاويش".

إنّ الإصلاحات الحضارية التي ولدها الفكر "البنابي" هي اليوم بمثابة مرجعيات قارة، ومدروسة لكل اتجاه فكري يضع إيجاد تفاسير مقنعة لأسئلة الحضارة، والراهن، مطلباً له، ومساراً تقتضيه المعطيات التي يدور في فلكها المجتمع العربي، والإسلامي بعد أن وقع تحت طائلة الاستعمار الجديد الذي أفرد له الاتجاه "البنابي" فصولا خاصة حتى قبل أن يوجد، وهاهو الراهن يثبت بما لا يدع مجالا للشك صحة ما ذهب إليه بعيدا عن الخلفيات المسبقة، أو الفرضيات المبنية على ثغرات تخمينية ليست من المنهج العلمي في شيء.

لقد وقف "ابن نبي" شامخاً بفكره، مستجيراً من أفكاره بأفكار أخرى أكثر جدة، وأعمق تحليلاً، وأقوى قدرة على التدقيق، والتواصل دون أن تكون له نظرة سوداوية لواقع الأمة المعيش، أو رجعية فكرية تلغي كل ما هو آت من وراء البحر من تجارب ناجحة تقدم للأمة أكثر ما تؤخر، فما جدوى أن يعيش إنسان القرن العشرين بأفكار القرن التاسع، أو العاشر؟ فهو أول من نادى بضرورة تجديد الموروث الحضاري والثقافي، ونفض الغبار عليه، لتشمل هذه النظرة حتى ذلك الكم الهائل من علوم القرآن والحديث والتفسير لأن المعطيات تغيرت، والحال يقتضي أن نطبق المناهج العلمية في استكناه حقائق، وأسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة بعيداً عن التأويلات، والقناعات الجامدة التي ترى في ذلك لغوا لا طائل من ورائه بدعوى أن الأقدمين لم يتركوا لنا شيئاً نبحت فيه، وهو ما رفضه ابن نبي جملة وتفصيلاً.

إنّ فلسفة الانطلاق من الواقع في وضع المقدمات، والتحليل العقلاني لأصل المشكلات، وأسبابها هي الصبغة الخاصة، والمتوثبة التي طبعت المدرسة التجديدية والمتأصلة للفكر "البنابي" وكرست استقلاليتها عن كل المؤثرات، والمعوقات، والخلفيات التي لم تزد أمور الأمة إلا تعقيداً حيث كسرت تلك الحواجز المزيفة، والتي أبعد ما تكون عن قيمنا، وموروثنا الحضاري، والثقافي، بل ساهمت في تضليل العقل وتحجيم دوره، ومنح المجال لشيوع الخرافة والردة الفكرية، وكان الفضاء الخصب، والمناسب لها هو الأمة العربية التي خرجت منهكة خائرة القوى من حقبة استعمارية خيمت تداعياتها

وانعكاساتها على الحالة العامة، فكان من الطبيعي أن يكون هذا الدور الكامن مغيبًا، بفعل تهاوي القيم، وصراعتها أحيانًا نتيجة للشلل الحاصل، والذي يتطلب رؤية شاملة، ودراسة أعمق لأن المشكلة حضارية بالأساس تتطلب زمنًا، ونهجًا مبنيا على استمرارية الفكرة، وفضاء اجتماعيا يعيش مخاضا عسيرًا يقتضي العناية به، وشموله بالرعاية، والتوجيه، والإشراف على ميلاده الطبيعي بعيدا عن الحول القيصرية المفضية إلى نتائج عكسية تزيد في مغبة الوهن الذي كرسته ظروف استثنائية، وأخرى مفتعلة لتضاعف من جراح هذا المجتمع.

إنّ النهضة المرتقبة، والتي ينبغي لنا التحضير لها، والعمل على وضع أسسها، لهي أمر مفروض، وضروري لإثبات الذات من جهة وتحقيق الإقلاع بعد فترة الركود، أو ما سماها بفترة "ما بعد الحضارة" فالأمة تعيش أشد حالات ضعفها، وتجاوزها لهذه المرحلة لن يكون غدا حتما، بل هو مرتبط بمدى نجاعة وفاعلية الفرد العربي، فالإنسان هو مفتاح الحضارة ومحورها، والانطلاقة لا تكون إلا من هذا الاتجاه بتكوين عالم الأشخاص، وتحقيق الوثبة النفسية بعد الصدمة، وفترة الفراغ التي يصادرها هذا الفرد، غير أن الانتقال من مرحلة الاستلاب، أو السلبية إلى مرحلة التوثب والمبادرة والخلق لا تكون إلا في نطاق علائقي اجتماعي مبدؤه قائم على شمولية النظرة المعززة للبعد الاجتماعي، والداخلة للنظرة الفردانية المنعزلة التي كانت سببا في تعميق جراح الأمة ونكوصها في لحظة أشد ما تكون بحاجة إلى التظافر، والتكافل المحرك لدواليبها والباعث على التفاعل

والانسجام، لأن تفكك النسيج الاجتماعي هو أصعب مراحل مجتمعات ما بعد الحضارة، مما يعني عمليا التأسيس لأي بناء أو مشروع نهضوي من هذه النقطة بالذات.

لقد عثر "ابن نبي" على حقيقة ثابتة، وأساسية مؤداها ضرورة إيجاد فضاءات للتفاعل الاجتماعي الهادف إلى التغيير، والبناء قبل التفكير في أي مرحلة أخرى، فالبداية من هنا، والنتائج ترجمة للمقدمات العملية، والمنطقية، فإذا ما كانت كذلك، جاءت توقعاتنا مطابقة تبعا لما وضعناه من مقدمات.

لقد توصل "ابن نبي" إلى مجموعة من التعليلات، والنتائج المنطقية، والرؤى الهادئة، والمتزنة في نفس الوقت تتخذ المنهج العلمي مسارا ثابتا لها، ولا تلغي النظرات الفكرية الأخرى سواء كانت عربية إسلامية، أو غربية، وكثيرا ما ضرب لنا أمثلة من هنا، وهناك تبرر انفتاح الفكر "البنابي" على الأفكار، والحضارات الأخرى بعيدا عن التعصب، والفردانية، فقدم بذلك مشروع الحضاري الضخم كبديل لفرضيات أثبتت فشلها، أو بقيت حبيسة فلسفة هجينة تفتت الأفكار الخلاقة، وتتبد كل دعوة إلى التغيير، والمبادرة.

إنّ الإنسان بصفته مشروع المشاريع الذي يقوم عليه كل فعل نهضوي جاد، والأفكار المتأصلة والمنبتقة عن واقع اجتماعي، وثقافة خاصة، وقيم راسخة، عوالم تحدث الإقلاع المنشود إذا ما تفاعلت إيجابيا بفعل ما تنتجه كترجمة لهذا التفاعل.. كلها المشروع الحضاري الذي بشر به "ابن نبي"، وخصه بدراسات شاملة دوافعها الأساسية الرغبة

في تغيير الواقع، وإثبات الأنا الحضاري بخصائص ومقومات عربية، وطنية متأصلة، ومرهونة بالمنهج العلمي السليم.

لقد حاولنا في بحثنا هذا التركيز على هذه النقطة، لأننا بحاجة إلى قراءة واعية، وجديدة لفكر "مالك بن نبي" خاصة في أبعاده الحضارية التي تؤسس لمستقبل واعد، ومشرق كفيل باستعادة المركز الريادي لهذه الأمة، يقول "محمد شاويش" «إننا الآن بحاجة إلى قراءة أفكار هذا المفكر الهادي، والتعلم منه، لا أعني بالضرورة أن نقره على كل تفاصيل تحليلاته ولكن يجب أن نستخلص ما هو قيم حقا في فكر "بن نبي"، وهو طريقته في رؤية مشكلة الحضارة الإسلامية، وتحليلها، والجوانب التي يلفت انتباهنا إلى ضرورة التركيز عليها».

من هذا المنطلق القائم على علاقة الدين بالحضارة كون هذه الأخيرة تنبثق أساسا عن فكرة دينية، تعرضنا بالتحليل إلى مفهوم الإسلام وأبعاده عند "بن نبي" بعد أن ناقشنا موقع مفكرنا من الفكر الإسلامي المعاصر الذي تناول القضايا الكبرى للأمة بغض النظر عن فلسفة كل اتجاه، أو طريقة تحليله حتى ننصف - ولو من باب الأمانة العلمية - المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، ثم تفصينا فلسفة الحضارة عنده كمفهوم، وكرؤيا، وكبناء شامل له شروطه، ومقوماته وعوامله التي يقوم عليها بعد الوقوف على أسباب الانحدار الذي تعيشه الأمة، وتحديد العلاج الناجح لذلك، وتوفير المناخ الملائم.

ولئن اقتصرنا في عملنا المتواضع هذا على فواصل معينة فلأن محيط "الفكر البنابي" يحتاج في كل لحظة إلى قراءة متجددة،

وعميقة، وليس في مقدور أي كان استكناه حقائقه، مما يجعلنا مدينين لهذا المفكر المتميز بالكثير.. وصدق من قال أن العظماء لا يموتون بل يولدون في كل يوم مرّة!

المؤلف

الفصل الأول

- 1- "مالك بن نبي" .. البداية والمسار.
- 2- "مالك بن نبي" في عيون معاصريه.

سأولاً بالحفا

السماح قبا عبا .. " رجبنا نبأ ظالمه " - ۱

هيا سلعه نريد ريف " رجبنا نبأ ظالمه " - ۲

1- "مالك بن نبي" .. البداية والمسار

مالك بن نبي مفكر جزائري من مدينة قسنطينة تحديداً، ولد بها سنة 1905، ونشأ في أسرة فقيرة نسبياً من أم خياطة وأب موظف دخل الكتاب صغيراً شأنه شأن عمالقة الفكر، والأدب العربي خاصة أن هاته الفترة تميزت باحتكار المعمرين للمدارس النظامية ولم تكن السبل متاحة إلا للقليل.

استمر على هذه الحال أربع سنوات، إلى غاية انتسابه إلى إحدى المدارس الفرنسية، ورغم ذلك فقد بقي محافظاً على علاقته بأقرانه، وبمحيطه خاصة، الحلقات التي كانت محورها المساجد.

ولما أتم دراسته الإعدادية اتجه إلى تبسه سنة 1918م لينهي المرحلة الثانوية، ومن ثمة حصوله على منحة دراسية بقسنطينة حيث درس الفرنسية، والعربية معاً إلى غاية سنة 1922م التي تميزت بربط علاقات متعددة مع تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله -

انتقل إلى فرنسا بحثاً عن العمل سنة 1925م، ولم يتسن له ذلك، فعاد ليحصل بعد ذلك على منصب كاتب محكمة "بأفلو" - ولاية الأغواط حالياً - ثم تم نقله إلى "شلفوم العيد" إلا أنه استقال بسبب حدوث خلاف بينه وبين كاتب محكمة الصلح الكورسيكي، وبحلول الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1929م لم يجد بداً من السفر إلى باريس ثانية لإكمال دراسته، وسجل بمعهد الدراسات الشرقية، وتعرف هناك على تنظيم "الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين" وفقاً لتطلعات شباب تلك المرحلة، فأصبح عضواً فاعلاً، إلا أنه قرّر بعد ذلك ترك معهد الدراسات الشرقية لينتقل إلى مدرسة

اللاسلكي فرع هندسة الكهرباء فجمعته المقادير بزواجه الفرنسية الأصل والتي أصبح اسمها "خديجة" فكانت سنداً له، وملاذا مهماً في أهم مرحلة من حياته وذلك سنة 1931م تعرف إلى مجموعة من العلماء، والمفكرين أهمهم المستشرق ماسينيون، والمهاتما غاندي إضافة إلى منحى الفكر لدى "شكيب أرسلان" عن طريق "فريد زين الدين"¹، إلى أن عاد إلى الجزائر صيف سنة 1932م، ويمضي بقية حياته متنقلاً بين فرنسا والجزائر رغم شوقه إلى الأسفار، والرحلات، إلا أن الرغبة في بعث العنصر الجزائري، وتوجيهه، وإخراجه من عزلته المفروضة عليه فرضاً، جعلته يفكر في إنشاء معاهد، ومراكز إشعاع لم يكن من اليسير تحقيقها²، فانقطعت بذلك زيارته لفرنسا رغم وجود زوجته بها، وإنما ظل يرأسها من "القاهرة" بعد أن تكفل "جمال عبد الناصر" به، فانشغل بأمور الفكر والتنظير من سنة 1956م إلى غاية 1963م حيث عاد مديراً للتعليم العالي إلى غاية 1967م.

وما يلاحظ على "مالك" أن ثقافته فرنسية، وأداءه اللغوي كذلك وهذا مرتبط بنمط تكوينه الذي تلقاه، ورغم ذلك فقد تعلم العربية بالقاهرة، وكتب بها، وألف بها الكثير من الأعمال فكان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي.

كان بسيطاً، متواضعاً، صادقاً، هاجسه أعمال الفكر، وتبويب رؤاه الإصلاحية، والفلسفية، والحضارية إلى غاية وفاته سنة 1973م.

1- "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً ص 16 ط: دار النفائس 1986.

2- "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً ص 16 ط: دار النفائس 1986.

يقول د/أسعد السحمراني: «كان مالك غزيرا في إنتاجه الفكري بعض مؤلفاته وضعت ككتب، وبعضها مجموعة محاضرات نسقت في كتب، معظم ما كتبه بالفرنسية ومن ثم كان يستعين ببعض طلابه، أو أصدقائه لتعريبها..»¹ ليترك بذلك رصيда فكريا هائلا تمثل في كتب:

- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
- مشكلة الثقافة.
- ميلاد مجتمع.
- إنتاج المستشرقين.
- في مهب المعركة.
- مذكرات شاهد القرن.
- بين الرشاد والتهيه.
- شروط النهضة.
- وجهة العالم الإسلامي.
- المسلم في عالم الاقتصاد.
- آفاق جزائرية.
- تأملات.
- دور المسلم ورسالته.
- الفكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ.

¹ - المرجع نفسه.. ص 18.

- الظاهرة القرآنية.

كل هذا، إضافة إلى مجموعة من المحاضرات، والمخطوطات التي بقيت حبيسة الأدرج.

2 - "مالك بن نبي" في عيون الآخرين

مهما حاولنا أن نحدّد موقع -مالك بن نبي- على صعيد الفكر العربي وتدايعياته مشرقا، ومغربا، فإننا لا نفي الرجل حق قدره، لكن مهمتنا في كل هذا ما عبر عنه كثير من المتقنين والمفكرين العرب ممن عاصروه، أو جاءوا بعده بعد إطلاعهم على منحاه الفكري، ومواقفه على أكثر من صعيد، فقد كان مفكرا، ومصلحا، ومنظرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى "فهو إنسان مسلم بكل ما لكلمة إسلام من بعد إيماني، وفكري وكان يترجم إسلامه في سلوكه، وأعماله، وأقواله.

كان يقدر الثورة كفكرة، ويفهمها أنها إرادة تغيير هادف.. كما يقول الأستاذ "فوزي الحسن"¹ الذي كان على علاقة وطيدة به استمرت لسنوات، وحفرت في مخيلته شواهد دالة على حقيقة وعظمة شخصية فكرية جزائرية متوقدة يقول: «كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار والردّ على سائله بشكل مقنع شاف، حتى أنه كان يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي لمجرد توجيه الأسئلة حول أي موضوع. كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكرة، ولذلك فهي تباع بسعر زهيد مما يوقعها بعجز يسده من جيبه» فالأستاذ "فوزي" يبرز لنا بصدق حقيقة معاناة -مالك بن نبي- في إيصال أفكاره، وبذله في سبيل ذلك رغبة في بعث عالم آخر، عالم متجدد بعد سيل من الركامات والانهمامات فالرغبة في الانبثاق، والسعي في تجسيده سمتان أخريان كانتا تميزان مسار الرجل الذي شخص

¹ - المرجع نفسه.. ص 20.

كثيراً من الحالات التي كانت تتخر جسد هذه الأمة.

يقول الدكتور "مصطفى السباعي" أنه: «استطاع بأسلوبه الذي تفرد به، وثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية أن يوجه إليه أن أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة، وسلامة التفكير، وبدأ يرى في الأستاذ بن نبي رائده الفكري البعيد النظرة القوي الإيمان، المناضل بقلمه في سبيل الإسلام»¹ مما يعني أن مالكا استقطب بفكره طلائع الشباب العربي التواق إلى وجهة رابدة عنوانها الردة، والاستعمار والضعف.

يقول الأستاذ "عمر مسقاوي": «تتطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه، أو علماً مستخلصاً من تجارب الحضارة الحديثة، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة فهو يطرح الإسلام كملهم لقيمنا، وقادر على استعادة دور الإنسان مبراً من ثقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب، وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية»²

فالإسلام في منظور مفكرنا فكرة دينية عملية، واقعية خالية من التعقيد، والتشنجات الخارجة عن إطار القيمة الحقيقية المبتغاة من الاعتقاد الصادق، والصحيح لهذا الدين، فالإنسانية كل الإنسانية مدينة له، بحاجة إليه كلما تداعت القيم، وتهافت الطروحات ذات الطابع الفلسفي الماورائي، الغارق في الاستشراف

¹ - المرجع نفسه.. ص 21.

² - المرجع نفسه.. ص 21.

والتماذي، إلا أن فلسفة الإسلام غير ذلك تماما عكس باقي الديانات الأخرى، فالواقعة كواقعة هي المنطلق الذي تجسده القيمة الدينية، والقيمة الفكرية المبنية أساسا على فاعلية الإسلام.

ويواصل الأستاذ عمر مسقاوي: «فقد أتاحت له نشأته في الجزائر أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد، وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكرة الأستاذ مالك تجربة نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر يتعرّض لمشكلات الحضارة بدلا من مشكلة الإنتاج الحضاري.

لقد وجد نفسه كمتقف جزائري أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلا بد أولا من بناء الإنسان قبل بناء الآلة حتى لا نضع العربية قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف الحقيقي».

فبعد أن كان التكوين الأساسي لمفكرنا في مجال الكهرباء، أدرك أن المعركة الحقيقية هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء آخر والصراع الفعلي لن يخرج عن هذا الإطار، وربما كان هو السبب الحقيقي لتداعي الحضارة الأم، الحضارة العربية بعد مسيرة فكرية ناجعة، ومنتجة استغلها أعداؤنا وجسدوها واقعا حياتيا شاهدا.

لذلك اتجه هاته الوجهة - كما يؤكد الأستاذ مسقاوي - لأنها البديل اللازم، والدور المنوط به قبل أي دور آخر كمتقف، ومفكر له نتاجه، وأراؤه.

ومن بين ما قاله عنه "أنور الجندي": «مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين، والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية

أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة، والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب، وفكرهم المستمد من تراث اليونان، والرومان، والمسيحية¹ وهو ما يؤكد بدوره الأستاذ "محمد المبارك" حين يقول: «إنه عربي مسلم، ليس هو من المجتمع الأوربي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، وكان تعمقه في الثقافة الأوربية سببا في تحرره من نفوذها، ومعرفته لمصادرها، ولدوافعها الخفية وبواعثها العميقة ولاسيما أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة الأرجاء، عميقة الأغوار، كما تدل عليه آثاره، ومؤلفاته العديدة التي قرأناها..»

لقد تجمعت في قلبه ونفسه، في عاطفته وشعوره، في عقله وتفكيره مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر ضحايا لمدنية القرن العشرين، وأمثلة بارزة لانحطاط أهدافها، وغاياتها² لقد كان مالكا رغم غربته الدائمة خليفة حقيقية لما يعيشه الجزائري، والجزائر الوطن الأم باعتبارها جزء من أمة كاملة تعاني ما تعاني، وبالتالي إن ارتباطه بها ارتباطا قويا عبر عنه كل الذين عرفوه، وأبرزوا شعور هذا المفكر اتجاه وطنه - وإن كانت ثقافته أوربية - فالعبرة فيما ذهب إليه كل الذين أخذنا آراءهم فيه أن الوطن، أو بالأحرى الجزائر كانت حاضرة بقوة في أهم مراحل حياته الفكرية بأحلامها، وآلامها، بكيانها

¹ - المرجع نفسه.. ص 22.

² - المرجع نفسه.. ص 22.

وتجسيدياتها، بصراعها الشرس بمدنية القرن العشرين - كما يقول محمد المبارك - وبجذورها، وارتباطاتها، وعمقها الحضاري الكامن إلا أن نظرة -مالك بن نبي- كانت تصب في الصياغ الحضاري العربي، ككل والجزائر جزء هام في حلقة هذا الصياغ. ويشير "محمد الميلي" إلى القيمة التي تحظى بها كتابات مالك بن نبي، وإشعاعات فكره، وخلاصات تجاربه ذات البعد الحضاري الإصلاحي في أوضاع معيشة صعبة تتسم بالاستعمار والهوان فيقول: «يستخلص بن نبي في كتاباته.. أن خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع الغرب لروح الإسلام، فقد كان فكر "مالك بن نبي" مدعوا لأن يلعب دورا معتبرا بعد الاستقلال، لكن هذا الدور كان محدودا بفعل عاملين: الأول هو نظريته عن قابلية الاستعمار والتي استغلها أعداؤه ضده عندما جعلوها نوعا من التبرير للاستعمار، الثاني هو الظرف الخاص الذي عرفته الجزائر بعد عام 1962م، والذي تغلبت فيه إجراءات التجديد.. وكذلك إجراءات التقليد للغرب وأنماطه الحياتية مما صرف النظر عن هضم عصارة الحضارة الغربية، والاستفادة منها إلى أقصى حد...»¹

فموقع -مالك بن نبي- كان موقعا طلائعيا في استتفار القدرات الكامنة، وتحديد ملاجئ الكمون التي يفترض أن تتألق انطلاقا من الإدراك الفعلي لعمق المشكلة التي تعاني منها الأمة من منظور فكري واقعي بعيدا على التجريد السافر الذي ينثال على الفرضيات المثلى في تقصي الحقائق والوجهات الملائمة وفق أطر يقتضيها الرأهن..

¹ - المرجع نفسه.. ص22.

إنّ "مالكا" بموضوعيته في تحليل الأمور، ومنهجيته ودقته في اختيار الألفاظ كان بمثابة مرحلة النضج الفكري في الفكر العربي الإسلامي كدليل عمل للثورة، وأسلوب مواجهة الاستعمار - كما يقول الدكتور "أسعد السحمراني" لذلك فالمعركة معركة فكرة، والفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها.

من هنا انضوى هذا المفكر المنبثق ذي الخاصية الجزائية يحدد الأسباب، ويضع البدائل ويبيّن مشروعه الذي كان فعلا بديلا حضاريا من منظور عربي إسلامي ناجح.

الفصل الثاني

1 - الفكر "البنّابي" وموقعه من الفكر الإسلامي المعاصر.

2 - الإسلام وعلاقته بالحضارة في الفكر "البنّابي".

1- الفكر البنيابي وموقعه من الفكر الإسلامي المعاصر

كما سبقت الإشارة إليه، فإن مالكاً يعتبر مفكراً إسلامياً وإصلاحياً ذا مرجعية عربية قديمة رغم أن جل كتاباته باللغة الفرنسية، ولئن كانت بؤادر الانبثاق الفكري لدى مفكرنا بارزة للعيان، إلا أن هناك عوامل كان لها دور في الحد من هذا الانبثاق نتيجة لخلفيات، وأسئلة كرسست مشرقية الفكر بدل مغربيته، أو بالأحرى عوربته لذلك نجد أن مقام مفكرنا مفترض أن يكون في واجهة الفكر العربي المعاصر.

تحديداً من هذا المنظور، وتقصياً للمعطيات التي أحاطت بفترة نبوغ هذا المفكر، فإننا نحاول تحديد موقعه في الفكر الإسلامي المعاصر الذي عرف مجموعة من التحولات، والانزيمات بفعل ظروف معينة. فما موقع مفكرنا في هذا المسار؟!

يشير الباحث "محمد شاويش" إلى أن "مالك بن نبي" يشغل موقعا خاصا في الفكر الإسلامي نظرا لطبيعة تكوينه، ومرجعياته الفكرية، بل يقول أنه يشكل لوحده مدرسة خاصة من مدارس الاتجاه الفكري الإسلامي المعاصر خاصة وأنه يمثل اتجاها، عاش فترة استعمارية ليست ككل الفترات الاستعمارية التي عاشتها الأقاليم الأخرى، وما رافق ذلك من محاولات مسخ للهوية، وللذات معا، وفق خطط عملية مدروسة ذات غايات استعمارية قدرة ارتبطت بتهوي الأمة العربية ككيان بدأ يتآكل من الداخل شيئا فشيئا، فكان المصير الحتمي طبعاً.

إلا أن محاولات المسخ هذه، لم تمنع مفكراً مثل مالك بن نبي

من أن يكون حلقة أخرى من حلقات الإصلاح التي قادها في مصر "محمد عبده"، وفي الجزائر "عبد الحميد بن باديس" ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو ما أهله لأن يكون مشاركا في التغيرات السياسية والايديولوجية في العالم الإسلامي، وفي المشرق العربي حسب "محمد شاويش"¹ إن الظروف الاستعمارية المحيطة بأهم مراحل حياته كانت ضرورة بوجه ما لتحريك الفعل الحضاري والفكري في مجتمع تسحقه الغطرسة، ويناله التتكيل، وتصهره مرحلة فمرحلة الدعوات التبشيرية، والتتصيرية، ولا يمكن بأي حال الفصل بين ما تعيشه الجزائر، والأقاليم العربية الأخرى، لأن هذا التداعي يصب كله في نطاق تراجع الدور الحضاري للأمة العربية أو الإسلامية في فكر مالك بن نبي فكان لابد من التعرف على أعراض هذا الداء الذي حاول المستشرقون أن يحددوه في صياغ واحد، وهو الإسلام الذي اعتبروه السبب الوحيد والمباشر في تخلف هذه الأمة، وهو ما جعل مالكا يدخل في معارضات ومناظرات كثيرة لرد هذا الزيغ فالمشكلة في رأيه ليست البحث عن طرق حصار العلل، وإنما في كيفية الانطلاقة، والإقلاع من جديد بدءاً من القدرات الباقية أو الكامنة بمحاولة إحيائها، وتهيئتها لميلاد حضاري آخر على اعتبار أن التداعي الذي عرفه العالم العربي طبيعي إذا ما تدارسنا خلفيات ذلك من منظور ناضج.

إن هذا التفكير السليم لا يكون إلا لمفكر بحجم "مالك بن نبي" بل هي ميزة من ميزات مدرسته، يقول "محمد شاويش": «إن ميزة مدرسة مالك بن نبي التي تهبها طابعها الخاص في مدارس الفكر

الإسلامي المعاصر هي أنها تركز على مشكلة الحضارة الإسلامية، وليس على مشكلة السلطة السياسية»¹

فالسلطة السياسية هي من صلب الحضارة، أو هي وجهها القائم على تصوراتها، وتوجهاتها، وأنماطها الموضوعية لها بعيدا عن أي صراع خفي أو ظاهر كما يعتقد الكثير من المفكرين، وذلك هو الفرق الكامن بين نظرة مالك لأبعاد الأشياء، ونظرة معاصريه من أقطاب المدارس الأخرى «لكن الفرق بينه وبين المدارس الإسلامية التي ظهرت من الستينيات فصاعدا أنه لم يواجه مشكلة ابتعاد الدولة الحديثة عن الشريعة، بل استمر في المدة القليلة التي عاشها بعد الاستقلال في الاطمئنان إلى أنه لا خطر على الإسلام نفسه، وإنما الخطر هو في استمرار المسلمين في وضع الانحلال الحضاري».

ومن هذا المقتطف يمكن أن نتبين ذلك الرفض الخفي الذي كان تواجهه أفكار مالك من قبل المدارس الأخرى مثل مدرسة "محمد عبده" التي عرفت بأفكارها المتشددة، والرافضة لمثل هذه التصورات والتي كانت قطبا من أقطاب الوهابية ذات الاتجاه السلفي، فرغم أن مفكرنا في بداية حياته تأثر بهذا الاتجاه بالغ التأثير كما يعبر في "مذكرات شاهد القرن" إلا أن وجهته اختلفت مما كان - في رأينا - سببا مباشرا في عدم اكتساح أفكاره المشرق العربي نظرا للمرجعية الفكرية المتشددة لهذه المدرسة الإصلاحية، ومثيلاتها، رغم ما لاقته أفكار مالك في أوروبا وفرنسا تحديدا من وجاهة، وتقدير، فالاختلاف لم يكن أساسه المرجعية، بقدر ما كان في طريقة معالجة القضايا الكبرى، والراهنة لأن

¹ - المرجع نفسه ص: 110.

القدرات الفعلية تختلف، وتتنوع مما ساهم في بروز نمطية جديدة تعتبر مدرسة -كما أشرنا- «إنّ طريقة "مالك بن نبي" في طرح مشكلة المسلمين كمشكلة حضارة ومجتمع، ودعوته المجتمع الإسلامي للنهوض بعمله الخاص الدؤوب، ودون انتظار نيل الحقوق من طرف خارجي هي طريقة قيّمة جدا نحتاج إليها هذه الأيام حين نرى أنّ من الإسلاميين من يمحور كل نشاطه حول هدف مطالبة السلطة بحقوق أو قوانين ويترك مهمة الإصلاح الاجتماعي مؤجلة بانتظار تطبيق الشريعة الإسلامية! إنّ طريقة مالك بن نبي في التحليل الصّبور لمشاكل الحضارة يحتاج إليها جيل الشباب عندنا الذين يميلون في حماسهم إلى ترك التحليل العلمي المنهجي، وتفضيل رفع الشعارات عليه»¹

إنّ ما ذهبنا إليه في السابق، ويؤكدّه الأستاذ "محمد شاويش" في الإجابة على كثير من الأسئلة ظلت معلقة إلى حين حول المكانة التي من المفروض أن يحتلها تنظير هذا المفكر في طريقة تحليله وتفكيره، وبنائه، ومعالجته للقضايا بعلم ونجاعة؟! لأنه كان من شمال إفريقيا؟ أم لأنّ تكوينه بالفرنسية؟! أم لأنّه كان مرتدا في نظر أولئك المصلحين ومدارسهم?!.

أم أنّ المرحلة التي تعيشها الأمة في تلك الفترة تقتضي تغليب العاطفة على الفكر، والحماسة على التبصر..؟!.

«لعلّ لجوء بن نبي إلى التحليل الصّبور مما لا يجعله كاتباً مفضلاً عند هؤلاء الشباب الذين يعجبهم الأسلوب الحماسي الذي يطرح أفكاراً قليلة، وعواطف كثيرة، "مالك بن نبي" يطرح على العكس عواطف قليلة، وأفكاراً كثيرة!

¹ - المرجع نفسه ص: 110.

وهو بمنهجه هذا يعتقد أن مسألة نهضة الحضارة تخضع لسنن الله في الكون، وهي بالتالي تستوجب منا أن ندرس هذه السنن بامعان لنستطيع التأثير، ونكون فاعلين في الحضارة.

العمل الصبور المنهجي الدؤوب المتواضع الذي يقبل بإنجازات صغيرة هي لبنات بناء الحضارة المنشودة، ولا يتبع مبدأ "كل شيء، أو لا شيء"، وانطلاقاً من هذا العمل، ومن قيام كل فرد في المجتمع بواجبه نحصل على حقوقنا الكبرى في العالم¹ إن الاختلاف الواضح في الرؤى والأبعاد يفسر لنا حقيقة ما كان يجري من صراع تختلف مضامينه، وأدواته وفلسفاته أيضاً، فتوليد الأفكار والحلول ليس كاتباع نمطيات سابقة، والاعتداد بها، وذلك هو الفرق الكامن، والداعي إلى بروز المدارس الشرقية في الفكر والإصلاح مع انكماش الدور الإصلاحي والفكري المغاربي بصفة عامة في وجه هذا التيار الشرقي الذي وإن كانت لنا مرجعياته، فإن الحلول ليست كذلك.

إن مالكا في منظور الفكر الإسلامي المعاصر بناء على معطيات غير دقيقة محكوم عليه من قبل كثير من المفكرين بأنه عالم اجتماعي ذي مرجعيات تختلف عن أولئك الذين يمثلون هذا الاتجاه في ظل غياب نظرة فاحصة لحقيقة الموروث والمكاسب التي أسس على إثرها رؤاه، وفرضياته، وتخميناته.

وإن كان هذا الرأي فيه جانب مهم من الصواب إلا أن الخلفية التي بني عليها لا تنطلق من أساس الفكرة ذاتها كمضمون، وكأداء وكوسيلة، أو علاج، ولكنها نابعة من شعور سائد بالاحتوائية السلبية القائمة على تراكمات حضارية وفكرية معينة أثرت

¹ - المرجع نفسه ص: 110.

في تحديد جملة من المفاهيم، لكن هذا الحكم لا يلبث أن يتداعى حين يمحّر مفكرنا عباب القضايا الإسلامية ذات الرصيد الحضاري اللصيق بالتركيبة الاجتماعية للإنسان العربي حتى تنتفي من المتخيل الفكرة القابلة بانحصار الفكر "البنابي" ضمن الصياغ الاجتماعي، بل نعتبرها نقطة قوة تفصل بين زمنين، واتجاهين، ومعطين، فمن الجانب الزمني، لو استطعنا أن نضع مساراً متواصلاً بدءاً من تجليات العلامة "أبو حامد الغزالي" .. وإلى اليوم نجد أن هذا المسار يكاد يكون ثابتاً دون زوايا، أو انتماءات ولو من باب التشكل نتيجة لسيادة مصطلح "الفكر الإسلامي" كحدود مضبوطة محرّم تجاوزها، بل يكفي أن تنتزع الصفة اللصيقة به "الإسلامي" حتى يتوارد إلى خاطر ذلك الانسلاخ بين الصفة، والمضمون، وإن كان غير ما يثبته الواقع.

أما من ناحية الوجهتين فهما اللتان تمثلان انقسام الفكر الإسلامي في حدّ ذاته إلى أصولي، ومخالف له، ولا نقصد بالمخالف له هنا المنفتح أو ما هو سائد، بل إن الجوهر هو الاختلاف بغض النظر عن المرجعيات أو الفلسفات، والمنهجيات حيث استطاع "مالك بن نبي" الجمع بين مجموعة من الرؤى، والدلالات، وحتى القضايا التي اعتبرت إلى حدّ بعيد حكراً على فئة دون الأخرى، لتتحدّد هنا دلالية المعطين اللذين ذكرناهما سابقاً، فإما فكر إسلامي ذو خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها، وإما فكر مناقض حتى وإن كانت تبعاته وأصوله إسلامية مما أوقع الرّبكة في تحديد مفهوم هذا المصطلح الذي لم يتم الفصل في جدله الدائر إلى اليوم بدليل تولد مجموعة من الصفات التي وإن كانت تصب كلها في بوتقته إلى أنها تتفرق ضمن علاقة ضدية لا تعكس بحق سعة هذه المرجعيات المعتمدة

مثل: "راديكالي - واقعي - أصولي - سياسي" وهنا أقف مؤيدا لما توصل إليه الأستاذ "محمد شاويش" حين يقول: «في الحقيقة إن الذي يقرأ "بن نبي" وفي ذهنه منذ البداية طريقة الاتجاهات المعاصرة المسماة الاتجاهات الإسلامية قد يميل، وهو يبحر في صفحات بعض مؤلفاته إلى عدّه مجرد باحث اجتماعي، أو باحث في فلسفة التاريخ كان من الممكن أن لا يكون أصلا باحثا مسلما فكثير من نظرياته الاجتماعية، والتاريخية صالحة لأن تقال في ثقافة أخرى مهما كان انتماؤها الديني.

هذه نقطة افتراق كبرى عن الاتجاه الإسلامي السياسي السائد إذ أن هذا الاتجاه الأخير لا يهتم بالتحليل الاجتماعي، والتاريخي بحدّ ذاته بل هو أساسا تشغل باله فكرة واحدة هي إقامة المشروع الإسلامي، أو بالأحرى دولة على أساس الشريعة الإسلامية، وهو يرى أن مشاكل المسلمين ناتجة عن غياب هذه الدولة، وأنه ما من حلّ مجدّ قبل هذا القيام، وكل التحليلات السوسولوجية والتاريخية إن وردت في كتابات هذا التيار، وورودها نادر فهي ترد لتأكيد هذه الفكرة الرئيسية»¹

فمن خلال ما أشار إليه باحثنا نجد أن هناك حكما سائدا ضمن التيار الفكري الإسلامي لا يمكن تنحيته، أو حتى التخفيف من وطأته إذ يلغي مشروعية الرأي الآخر بمجرد خروجه عن غطاء الشرعية الإسلامي، فلا فكر خارج هذه الحدود المرسومة وهو ما يعني مصادرة الفكرة المقابلة رغم أن فلسفة الدين الإسلامي تقتضي مقارعة الرأي بالرأي، وتقبل الحل الآخر ولو كان مناقضا بعيدا عن التزامت الفكري الذي لا يعطي بدائل

¹ - المرجع نفسه ص: 111.

دائمة ومستمرة وفاعلة بقدر ما يساهم في تجميد الفكر أصلاً. هنا يكمن الفرق بين الوجة التي اتخذها "مالك بن نبي" كمفكر منفتح على الأفكار الأخرى، وبين الفئة الأخرى التي حددت أبعادها حتى قبل أن تجد البديل لكن هذا لا يعني البتة غياب المحاورات الجادة، ومحاولات الخروج عن الأطر المرسومة سلفاً، بل ظهرت إرادة في تجديد الرؤيا، وبعث المشهد من جديد كما عبر عن ذلك الاتجاه الواقعي في الفكر الإسلامي من خلال الحوار، والانفتاح، والرغبة في إيجاد فضاءات فكرية أملت لها الظروف، والمعطيات، وحتى النتائج التي توصل إليها هؤلاء نتيجة لمقدمات مقفلة ومضبوطة، إلا أن المعيار "البنابي" كان فعلاً نقطة تحول - بعدما اعتبره الكثير ردة - حرك من جديد دواليب اختراق الآخر، ومعرفة مرجعياته، وخلفياته وحتى محاولات التشيؤ فيه، ونمطيته مما أحدث ارتدادات حاولت وضع مفكرنا في إطار ضيق بالتركيز على تكوينه والظروف التي تعيشها أمته من استعمار، ومحاولات طمس لهويته إلا أن فلسفة الاتجاه لديه كانت أقوى، فالعمق الحضاري الذي عالج به تفاعلات الأحداث التي تمر بها الأمة الإسلامية، وما تعانيه من مشكلات انطلقاً مما وضعه من تصورات منطقية عكفت على تتبع، وتقصي أسباب الداء كمرحلة أولى قبل إصدار الأحكام، أو تسفيهاها على نحو ما فعل الكثيرون بحيث بسط المشكل إلى أدنى وحداته التفصيلية بدقة متناهية ساهمت في بلورة رؤيا حضارية فكرية يخامرها اليقين أكثر من الشك أو الاندفاع.

فإذا نظرنا إلى كتاباته في النهضة وشروطها نجد أنه يحيط بالأسباب والظروف "الـ.. ما قبلية" للموضوع حتى لا تخرج عن نطاق الدورة الحضارية وإن شئنا القانون الحضاري الذي بنا عليه

فرضياته، ثم البت في أصل المشكل دون فصله عما سبقه وفقاً لما اكتسبه من تنظيرات وخبرات ترتبط دائماً بقانون طبيعي عام أساسه الضعف من بعد القوة، والقوة بعد الضعف حسب كرونولوجيا التطور البشري والاجتماعي.

إنّ ما أدى إلى تغييب دور "مالك بن نبي" كمفكر إسلامي بارز يختلف عن الموجة التي عرفها الفكر العربي الحديث، والمعاصر هي كونه لم يركز على ضرورة تطبيق المشروع الإسلامي وإلغاء الاجتهادات الأخرى، هذه النظرة التي لا تزال سائدة إلى اليوم خاصة المنظور السلفي ممّا أعطى صورة لدى هؤلاء عن إقصاء مفكرنا للدور الريادي الذي تؤديه الشريعة الإسلامية في أي مشروع بناء حضاري، فالدين نواة الحضارة، ومركب عناصرها ولا شيء غير ذلك فالفرق الكمين بين الاتجاهين أنّ هامش الفكر، والمنطق، والحكمة وجد له مساحة هامة في المسار التحليلي، وحتى العلمي "لمالك بن نبي" الذي يرى أن مجموعة النصوص الفقهية بحاجة إلى اجتهادات عملية، وعلمية فهي لا تكفي وحدها لبناء حضارة أو تجسيد حلم أمة ما لم يكن هناك عامل آخر مؤثر وهو العلم، أو إحكام العقل بعيداً عن الجاهزية التي جمدت كثيراً من الأفكار المشرقة التي أصبح العنصر الإسلامي بحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى.

إنّ المشكلات العامة التي يعيشها المجتمع الإسلامي بصفة عامة لا ينبغي حصرها في إطار النصوص والتشريعات الموجهة للأمة بل لأبد من العمل على تدعيمها بكل ما من شأنه تفعيل الحلول، وتقليل هامش الخطأ دون أن تتعارض مع تركيبتنا، وتكويننا، واعتقاداتنا وحتى عاداتنا.

فالشريعة في نظره قانون عام للمسلمين، ولكن حياتهم الاجتماعية تتقرر بسنن لا تتعارض معها، وإن كانت نصوص الشريعة لا تكفي وحدها لاستخلاصها.

وفي اعتقادي أنّ هذا الرأي هو بالذات رأي عالم شرعي متبحر رغم أن العناصر المتسرعة الجاهلة في مجتمعنا قد تسارع إلى التنديد بهذا الفهم الذي هو في الحقيقة للمتأمل بديهي فما الجدوى من الشريعة التي هي نواة كل بناء حضاري - كما أشرنا إليه - دون أن تكون مجسدة، ومؤثرة، وناجعة في آن واحد؟! فهي ليست نصوصاً فقط، بل فكرة، وحياة، ومساراً.

فالفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها، ومادام الحال كذلك فهي المدافع على تأسيسها وبلورتها كمجال معرفي يحدث التواصل الخلاق بين النصّ الشرعي، والرغبة في استكناهه، والمتمعن في حيثياته وأبعاده ليس كسوط شاهر سطوته، وإنما كوسيلة للتوجيه العقلاني المتفرد، السمع الذي يهذب الأنا الكاسدة إذ تستحيل إلى الأنا - المنتجة - المفكرة - الفاعلة بعيداً عن القمع.

وهي حياة بما ترتبه من سلوكيات وحتى أفكار تعطي الصورة الملائمة للفرد الواغل فيها قناعة، واجتهادا بما يفضيه الانطباع الشامل عن مدى نجاعة هذا الأسلوب النصّي الذي يفرض نفسه عن طريق المحاوراة، والإقناع والمبادرة أحيانا ضمن الأسقية الحياتية المختلفة.

من هنا يتحدّد مسار كل مشروع طلائعي مبني على رؤى صحيحة، وواعدة دونما حاجة إلى استغراق الزمن في ترتيبات تساهم في تشييع الجهد، وتفتيته ووضع حدود له هي أبعد ما تكون عن حقيقة، وأسلوب الفرد المسلم المنشود.

«والاختلاف الكبير لرؤية "بن نبي" عن رؤية الإيديولوجيا العربية المعاصرة كلها، وليس عن إيديولوجيا الحركة الإسلامية ما بعد "البناء" فحسب، وأنه لا يرى حل مشكلة المسلمين في استلام السلطة مهما تكن جيدة بل يراها أساسا فعلا اجتماعيا، وتجددًا نفسيا وروحيا لمجتمع متين، شبكة علاقاته الاجتماعية كثيفة يقوم فيه كل فرد بواجبه ويركز على واجباته أكثر مما يركز على حقوقه»¹.

إنّ فلسفة الدولة -المشروع ليست في النصوص، أو الكم الهائل من القوانين، والمؤسسات، والهيئات- على اختلافها بقدر ما تكمن في الفرد ذاته الذي هو محور المشروع، فمهما بلغت تلك الجوانب فهي شكلية لا يمكن أن تؤدي دورها كاملا ما لم يكن الفرد ناضجا بالدرجة الأولى، وناجحا في المقام الثاني.

فالمشكلة ليست في إقامة الشريعة الإسلامية وتطبيقها أو عدم التقيد بها بل إن الإشكال أعمق من كل تصور، وهنا يكمن الفرق في التنظيرات، والسياسات، والرؤى السوسولوجية المهمة بالفكر الحضاري.

فالإطار الذي يجب الاهتمام به ليس هو النظام السياسي القائم وفلسفته، إنما هو العنصر-الجزء الذي يعتبر وسيلة التغيير والمبادرة، والانتعاش على اعتبار أن الهدف الإيجابي الذي يراد الوصول إليه محدد، فلا تهم الطريقة، ولا الشكل والنمط لأن الهدف مرسوم حسب خاصية كل مجتمع من المجتمعات فالشريعة والدين بصفة عامة عامل نهضة مؤثر لكن ليس هو النهضة المقصودة ذاتها، كما أنه ليس عاملا من عوامل الانحطاط

¹-المرجع نفسه ص:111.

الحضاري بل إنَّ المسبب للانحطاط هو الابتعاد عن الدين،
فالدور على الأفراد، وليس على الفلاسفات، أو التوجهات
المتبناة في أي تنظير حضاري.

«إنَّ هذا لا يجعل من "مالك بن نبي" شخصا لا يريد تطبيق
الشريعة، لكن فهمه الأوسع أفقا لهذا التطبيق المستند بصورة
أفضل إلى سنن الله في المجتمع، والحضارة.

فهو لم يؤسس حزبا سياسيا، ولا يطرح شعار إسقاط الأنظمة
السياسية، ورؤيته لم تكن أيضا لتجعله يركز على مسألة الصراع
على امتلاك القرار السياسي رغم أنه ما كان يهمل دور هذا
القرار، غير أنه لم يكن يحسُّ بهذا الفصام المرير عن الأنظمة
الحاكمة الذي يحسُّ به كثير من عرب اليوم...»¹

فمن خلال هذا الطرح يتبين أنَّ مفكرنا لم يحمل الهم السياسي
الذي حمله معاصروه في قالب ديني ثابت، فالمشكلة الوحيدة لديهم
هي الأنظمة السياسية على أساس أنها محور الشر، بل هي الشر
ذاته والبديل لها دائما هو الشريعة الإسلامية غير أنه بديل
-في نظرهم- قائم على التقويض الكلي للدولة ككل، والانطلاق
من جديد في سباق زمني غير متكافئ عكس الفكر "البنابي" الذي
حاول سد هذه الثغرة لأن الخطأ ليس في الدين بل الخطأ
في التقويض، والهدم القائم على وازع عاطفي غير ممنهج،
ولا يملك من الأسلوب العلمي المنطقي إلا النتيجة دون مقدمات،
أو ترتيبات، أو فرضيات تذكر.

أجدني أمام هذه النظرة الشارحة، الفاصلة ممتنا لهذا المفكر

¹ - المرجع نفسه ص: 113.

الذي وضع الاجتهاد نصب عينيه بعيدا عن الخلفيات والأحكام المسبقة فماذا لو تمعن معاصروه في هذه النتيجة؟!

إنّ الصراع مع الأنظمة السياسية هو رأس المشكلة عند هؤلاء فهو ثابت حضاري غير أن "مالكا" يبعد الصراع كلية من أي مشروع أساسه التغيير نحو الأفضل، وليس التغيير من أجل التغيير، فالصراع قد يكون وسيلة، ولكنه لن يكون فلسفة، ونمطا حضاريا أبداً.

ومن بين النقاط التي ساهمت في تجسيد فكر "ابن نبي" واعتباره منهاجا غريبا عن الفكر الإسلامي أنه لم يشر في دراساته وأبحاثه إلى مفهوم الجهاد الذي ظل لصيقا بهذا التيار توجها، ومدلولا، ربما لأنه يعتبر في تصوره بعيدا عن أصل المشكلة الحضارية التي تتخبط فيها الأمة، أو هو كما يشير "محمد شاويش" -«لا يراه طريقا يحل بذاته المشكلة حيث تحولت فكرة الجهاد إلى فخ يقود الأمة الإسلامية إلى حتفها»¹

ومما لا يخفى أنّ كل الاتجاهات الإسلامية المعاصرة في الفكر والدعوة تشهر الجهاد كسلاح ردع، وضرورة للتغيير حتى وإن كان الراهن يثبت أن لا قدرة لنا على ذلك، وغاب عن هؤلاء أنّ الحوار والمحاكاة، والمفاوضات هي أبرز سمات الدين الإسلامي الذي يقوم على مقارعة الفكرة بالفكرة قبل أن تتحول إلى السيف والقوة.

إنّ الجهاد في نظر مفكرنا يكون حلا أخيرا بعد استنفاد كل السبل، والوسائل الأخرى لأن الجهاد الحقيقي الذي يفترض أن

¹ - المرجع نفسه ص: 114.

يتخذه، ويتفهمه الفرد في الأمة هو مقاومة عوامل الانحطاط في النفس أولاً ثم في المحيط الأسري الصغير ثانياً، ثم في المجتمع، ثم الأمة فماذا يفيد الجهاد في مجتمع أفراده مبعثرون، ولا وجود حتى لتواصل أدنى بين فيئاته، فما بالك إذا تعلق الأمر بقضية كبرى كالجهاد؟!!

إنّ السبب المباشر -في رأينا- الذي جعل "ابن نبي" لا يسترسل كثيراً في هذا الموضوع هو غياب الشروط الفعلية له، أو لنقل انعدامها تماماً، وبالتالي غياب الفكرة أصلاً، مما حدا بعلماء ومفكري الأمة إلى الريبة في أمر "مالك بن نبي" مع محاولة إيجاد تفاسير وتعليقات لتغاضيه عن كثير من المحاور التي لم يكن يرى من ورائها جدوى، فمعالجته للمضامين، والقضايا كانت بطريقة تختلف تماماً عن هؤلاء، هي أكثر عمقا وتمحيصاً، وأشد تقصياً، وأبعد نظراً وأعلم منهجاً، والدليل بقاء هذا الكم الهائل من الأفكار والرؤى تصارع الانقلابات التي عرفتها الأمة الإسلامية دون أن تحيد عما رسم لها، أو يتلاشى أداؤها. فكل الاتجاهات الفكرية الإسلامية من السلفي إلى الواقعي إلى السياسي أوجدت بدائل، ومبررات لكنها لم تصل درجة الإقناع، أو حتى الثبات مما أوقعها في تناقضات كان الضحية فيها المجتمع الإسلامي المشتت فكراً لا عقيدة، لا هوية، لا انتماء، ويكفي أن نضرب مثلاً عن التيارات السلفية المختلفة، والأشد تعارضاً فيما بينها في الفكر الإخواني في مصر، والجزائر..

من هنا نجد أنّ القراءة المتأنية، والفاحصة لمعطيات الراهن دون فصله عن ماضيه أو آتیه باعتباره يشكل حلقة ذات صيرورة طبيعية مكنّت للفكر "البنابي"، وشدت من إزره وفق التصورات العلمية الممنهجة التي بواته الزيادة -وإن أنكر الكثير من المدّعين

على "ابن نبي" ذلك - فهو لم يتشيع إلى أي من الأقطاب التي ذكرناها، وإنما تشيع إلى الرأي العالمي الفاحص، الراض للمقدمات الجاهزة، أو القابلة للانكماش.

وأمام هذا الهرم الدافق الذي يتأكد لنا يوما بعد يوم سبقه، وأحقيته في ريادة الفكر العربي على امتداد مناحيه، وتجاربه إنتاجا، وعقلانية وموضوعا كرّست الخاصية "البنائية" فهي نظرية مستقلة بذاتها، متفردة بأسلوبها، وفرضياتها فما هي الأسباب يا ترى التي جعلت كل ما قدّمه "ابن نبي" لا يحظى بما حظي به بعض معاصريه، وإن كانوا أقل شانا وتجربة منه؟!!

لقد ناقش كثير من المختصين هذه النقطة، وأسهبوا فيها محاولة منهم إيجاد قناعات حقيقية تقلص من وطأة هذا الإنكار لجهود عالم ومفكر متميز، إلا أننا مع كل هذا تؤكد أن "العقدة الشرقية"

رمت بظلالها، وأحكامها على كل ما هو خارج عن الدائرة الشرقية، فلا مكان لصوت مغربي أو جنوبي مهما بلغ، ولم يقتصر هذا على الفكر فحسب بل تعداه إلى الأدب، ومختلف علوم الاجتماع وحتى على صعيد السياسة فالهيمنة الشرقية ذات ترسبات لا شعورية أفضت إلى نتائج حجت عنها الوجه الآخر للحكمة، لتحسس الغير الذي ينبض ملء فيه، ويحاول فرض أسلوبه، وطريقته لتجاوز الهيمنة المحكوم عليها بالتلاشي، والاندثار، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تخرج عن الإطار الطبيعي.

لقد فهم هؤلاء أنّ صوتا جزائريا محدود الخاصية، والمرجع يعاني محقا استعماريا مبنيا على تبعية الأخذ، والتحصيل، لا تستطيع إنتاج مشروع حضاري راق، ولا حتى تبني فكرة من الأفكار، فما بالك بقضايا الأمة الكبرى التي يرون أنها حkra

على تلك الجهة التي رسمت لمسارها هالة بدأت تداعيات تقوُّضها تمارس حقها اليوم بتمركز ثقل المشهد الثقافي العربي في لعبة توازنات بعد أن أثبت الواقع أن لا عقدة سواء غربية أو شرقية على محك المنهج العلمي السليم لقد تساءل الأستاذ "محمد شاويش" عن السر في قلة تأثير فكر "مالك بن نبي" رغم إشرافاته، وأرجع ذلك إلى عدة أسباب إضافة إلى السبب السابق الذي ذكرناه، حيث أرجع بعضها منها إلى صعوبة أسلوبه، ووعورة لغته، ولجوئه إلى التحليلات النظرية الدقيقة - وهو أمر ميّز مسار وتجربة مفكرنا - مما دفع إلى عدم الاهتمام به، خاصة أن صفة الجاهزية، والبساطة وتغليب العاطفة هي الأرضية التي يستثمر فيها الكثير من المفكرين العرب، وليس العكس.

إلا أن أهم ما أشار إليه الأستاذ "محمد شاويش" هو أن "ابن نبي" جاء في غير وقته، أو ولد لزمان غير زمانه، فترة ميزها النضال والحركات التحررية، والصراع الإيديولوجي مع موجة من الأقنعة.

والحال - في نظرنا - أن الظروف والزمن الذي وجد فيه "ابن نبي" ميزها الشعور الداخلي بالانتكاسة، والجمود بعد مرحلة سبات حادة قوقعت الأمة من الداخل، وهمشت دورها من الخارج، ولم تكن الظروف تسمح ب بروز الفكرة كمصطلح جديد، بل أن أساس العمل هو الإحياء الماضوي وهو ما عمل عليه مختلف العلماء، والإصلاحيون الذين لشدة ألمّ بالأمة لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للبحث الناجع، والاستقراء العلمي والموضوعي للظاهرة التي تتخبط فيها الأمة، فالمشكلة لم تكن حضارية أبداً في تصورهم، وإنما هي عقائدية - مسجّدية ترتبط بتركيبية الإنسان الموجود في تلك اللحظة وكل عمل خارج هذا الإطار

يعتبر لاغيا، وهو ما أسس عليه معاصروه رؤاهم وإصلاحاتهم. أما "ابن نبي" فكان بعيدًا عن هذا الطرح لأنه رأى ما حدث إنتاجا طبيعيا لمجموعة من المعطيات، والأحداث وحتى الترتيبات، فلم يصدمه الراهن بقدر ما مكن وسائل البحث، والتقصي لديه، فأعطى الظاهرة نصيبها من العناية والاهتمام.

إن قراءة جديدة اليوم لفكر "مالك بن نبي" ومحاولة تحديد موقعه في الفكر الإسلامي تجعلنا نضع الرجل في مكانه الطبيعي، في واجهة معيارية تتوقف عندها كل محاولات الإلغاء، أو الإنكار لأن المعطيات أثبتت أن تشعب الفكر الإسلامي، واختلافه، واهتمامه بالقضايا الهامشية للأمة، لم يزد لها إلا ضلالا.

لقد وضع "بن نبي" إصبعه على الجرح بعيدا عن الانفعال الزائد والأحكام السلبية المتسرعة، والحلول السهلة دونما محاولة ربط للأحداث ببعضها، فهي لا تتفصل - في نظره - ولها قانونها كما للطبيعة قانون أيضا.

من هنا بقي المشروع المنشود للأمة يصارع نفسه في زوايا منعدمة النور، وكل زاوية يفصلها عن الزاوية الأخرى حقب دامسة، فلا يمكن لها أن تتشكل وما لم تجد قوانين اكتمالها، وهي الفكرة التي بقي "مالك بن نبي" يناضل من أجلها، ويعمل على تكريسها.

«إن هذا الواقع يفرض العودة إلى السؤال الحضاري سؤال الفاعلية، سؤال النهضة، وهذا هو سؤال بن نبي الذي لم يستمع إليه معاصروه جيدا لذلك فالزمان الآن زمانه»¹

2- الإسلام وعلاقته بالحضارة في الفكر البنابي

تجدر الإشارة إلى أنّ "ابن نبي" يرى النواة الأولى لإحداث وثبة الانطلاق الحضاري تكون أساساً فكرة ذات طابع ديني ممّا يعني أنّ العلاقة قائمة ومتينة بين كل مشروع حضاري مبني على فلسفة بناء ناجحة.

لذلك فالفكرة الدينية هي مرحلة لتجاوز العتبة وتحريك المفاعل، ووضعها في مساره الصحيح بحيث يصبح الفرد -المشروع على الاستعداد للبناء بعد أن أوجد ديناميكية التفاعل الاجتماعي بينه وبين الطرف الآخر، وهكذا. وكثيراً ما استشهد مفكرنا بالحضارة الإسلامية التي كان نواتها ظهور الدعوة المحمدية التي فكت القيود الفكرية والعقبات التي تجهض المبادرة، والاقترار، بل وتكبل حتى الرغبة في التجاوز، وتغيير الأنا- فما بالنّا إذا كان المشروع مشروع حضارة؟.

إذن، فالدين عامل مهم وفاعل في بعث أي أسلوب أو نمط بناءٍ هدفه الانتشار، والاكتماس، والفاعلية المجاوزة لراهن الأشياء باعتبارها مكوناً له ووظيفة تحرير الفرد الذي لا يزال بحاجة إلى إشباع ذاته، والفرد الذي لا يزال يحاول التخلص من هذه التبعية، لأن الإقلاع لا يكون إلا سداً هذين المنفذين اللذين يميزان التركيبة البيولوجية للإنسان الذي يبقى دائماً بحاجة إلى التبشير بضرورة إقلاعه.

إنّ ما أراد أن يصل إليه "ابن نبي"، هو ضرورة الانطلاق في أي بناء حضاري من أرضية صلبة أساسها الفرد الذي تم كبح شهواته بصفة طبيعية، روحية متيقنة تجعله محصناً في وجه كل

الاستفزازات، أو العواقب، أو ردود الأفعال بما يضمن صيرورة العمل المنجز، وتواصله، وتأثيره فيما حوله فكيف ينظر "ابن نبي" للإسلام وما مفهومه، وأبعاده؟!!

في البداية نشير إلى أن فهم "مالك بن نبي" للإسلام يختلف عن شلة كبيرة من العلماء المسلمين الذي ينحصر في حدود العلائقية الصرفة بين المرء، وخالقه في صياغ الأوامر، والنواهي والنصوص غير القابلة للتأويل أو الاجتهاد، فهو يراه وسيلة لإقامة التوازن بين جانبيين مهمين، ومكملين لبعضهما البعض هما الروح والمادة، فمتى كانت العلاقة القائمة إيجابية، كان نتائجها نظام اجتماعي متناسق، ومتكاثف، وإن حدث العكس كانت المشكلة الحقيقية التي ولدها الانفصام الحادث بين المنحيين.

فالإسلام مسلك حياتي قائم على أساس تحقيق التوازن في شخصية العنصر المسلم الذي هو مفتاح الحضارة خارج الأطر الفلسفية المجردة، أو التنظير الغارق في التصوف، والانعزال، فهو مشروع حياة ناجح قبل أن يكون صفة اعتقادية روحية تعدّ ليوم آخر وتسفه الراهن، وإلا فما فائدة الحياة؟!!

إنّ الفهم الخاطئ لسماحة الإسلام، وعمق دلالاته شوه كثيرا تلك الصورة الناصعة التي ارتسمت في المتخيل الحضاري للبشرية، حيث اتجهت الجهود إلى مناقشة وإثراء القضايا الهامشية بما تثيره من جدل، وخلافات ظنا منها أنها في قلب المعركة، حتى صورت الإسلام ديناً قاصراً عن تحقيق أحلام، وطموحات البشرية التي تتوق لكيان ديني يخلصها من مشاكلها الكبرى، ويضعها على الجادة.

"فالقصور في الحقيقة ليس في الإسلام، وفيه ثوابت التشريع لكل

زمان ومكان، وإنما في سوء التفسير، أو عدم إعطاء الاهتمام للتطوير¹

إنّ الإسلام قوة تماسك ووحدة في نظر "ابن نبي" وهو الدين الوحيد الذي يملك القدرة على تفعيل هذه الخاصية الروحية وتمتينها، وتجسيدها، فقد نجح في الجمع بين الأعداء، والسادة والعبيد في زمن لم يكن يخطر على بال، تحقيق هذا الحلم، لينطلق بعد ذلك هذا الزخم المتداخل في بناء حضارة لم يعرف لها العالم حدوداً.

«قوة التماسك الضرورية في المجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أيّ إسلام؟.. الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي، وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، وفي يدها -ضماناً لذلك- تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو ورجال الفطرة، والصحراء»²

فالسر الكامن وراء هذا التجسيد الفعلي للمسار الحضاري الصحيح كان في الحركة الإيجابية التفاعلية التي أوجدها الإسلام في مجموعة من الأفراد تختلف تركيبته البشرية من فرد إلى آخر، ولكنهم على اتفاق في ضرورة إنتاج مسار عملي منشود محدد، وصارم وفق فلسفة التكافل الاجتماعي والرغبة في بلوغ المرام مادام الجميع متساويين في المشهد المبدئي الأساسي، فالكل يعمل، والكل ينتج، والكل يساهم لأن المعركة مشتركة.

¹ - المرجع نفسه ص: 112.

² - "مالك بن نبي" .. شروط النهضة ت/عبد الصبور وعمر كامل. دار الفكر 1979 ص 90.

إنّ الإسلام بفلسفته المبنية على أساس التوفيق بين الحرية السياسية للفرد، والحرية الاجتماعية في نطاق الكل والشمول أعطى درسا لدعاة الديموقراطية حسب "ابن نبي" وكرس مبادئها في أسس صورها، ووافق الرغبة والميول البشرية في مجال العمل، والمنافسة والإنتاج، ولم يقيد هذه الحاجة مطلقا، والمتتبع لمختلف التجارب الغربية في هذا المجال يدرك مدى ما ينطوي عليه التنظير الإسلامي من زوايا ضيئة كفيلة بالقضاء على مخلفات، وتداعيات الأنظمة، والتطبيقات السياسية التي وإن نجحت في مجال ما، فإنها ستخسر في مجال آخر كما نرى اليوم.

«إنّ البلاد التي يحدث فيها هذا الاختلاف بين القيم السياسية والقيم الاجتماعية، تعاني صراع الطبقات الذي ربما ينتهي إلى تأسيس نوع من الديموقراطية يعطي المواطن الضمانات الاجتماعية اللازمة، ولكن على حساب حرياته السياسية، ولكن الإسلام تلافى هذا المعوق لأنه أتى لمشكلات الحياة المادية المتصلة بالنظام الاقتصادي، بالحلول المناسبة دون أن يمس الفرد في حرياته الذاتية، وعليه فالإسلام يبدو وكأنه جمع موفق بين مزايا الديموقراطية السياسية والديموقراطية الاجتماعية، فالتشريع الإسلامي يتم فعلا السمات السياسية.. بسمات ديموقراطية أخرى متصلة بالجانب الاقتصادي أيضا..»¹

لقد ركز الإسلام على نقطة التوازن التي أهملتها مختلف الأنظمة الهادفة إلى الخلق الحضاري والخروج للبشرية بمشروع متكامل يبدو من المستحيل تجسيده نظرا لما ذكرناه سابقا، ونتيجة لعدم شمولية طرحها، فهي إن قدمت بدائل اقتصادية معينة فإنها

1- " مالك بن نبي " .. تأملات . دار الفكر 1981 ص 24.

تهمل جوانب اجتماعية في الطرف الآخر للمشروع مما يؤدي إلى بروز خلل أشبه بالخلل التقني الذي يعطل الإقلاع، أو يؤدي إلى نسف كلي لما تم بناؤه في حالة الإقلاع، والنتيجة واحدة في النهاية.

«يصح القول بأن الحكم الإسلامي ديموقراطي في مصدره وعمله.. والإسلام يتضمن كل السمات التي تطبع الديموقراطية السياسية التي تمنح الفرد مسؤولية في تأسيس الحكم، والضمانات اللازمة التي تحميه من جور هذا الحكم»¹ فلا وجود إذن، ولا نجاح لمشاريع على حساب الفرد ذاته بإلغاء دوره أو محاولة حصره، أو تشويش فعاليته الكامنة بالحد من حريته، وبالتالي من قدرته على الإبداع والمبادرة، فلكي نجسد ذواتنا الحضارية على أسس قوية لا بد أن نعمل على تجسيد دور الإنسان المجاوز المبدع المبادر، القادر على التواصل والانسجام مع باقي أفراد المجتمع في علاقة تكاملية قائمة على النجاعة، والفاعلية.

لقد أثبتت الرسالة المحمدية أنّ مشروعها هو الإنسان المسلم الحر بعيداً عن عقدة النقص أو التمييز التي طبعت مختلف الأجناس الأخرى، حيث غرست في شعوره المبادرة وروح الإبداع انطلاقاً من تساوي الأفراد أمام الله، وعدم التفرقة بينهم إلا بمقدار تقوى كل فرد، وكان الهدف الأساسي إثرها توليد عنصر التكافل، والتفاعل ثم النهوض.

إنّ الإسلام بنى فلسفته على دحض تهميش الفرد، وإفراغه من دوره كطرف أساسي له حقوقه، وكرامته، وخاصيته التي ميزته تميزاً عادلاً، وفي قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم

¹ - "مالك بن نبي" .. تأملات. دار الفكر 1981 ص 24.

وحملناهم في البر والبحر ﴿ ما يدحض الفرضيات الاستشراقية المتعصبة لحنقها الشديد على الدين الإسلامي الذي يطرح بدائل قائمة وعملية لإنقاذ العالم من العبودية والانكسار.

فالإنسان المسلم عملي بطبعه، فعّال بعقيدته، مقدم بتركيبته ينبري لتحقيق ما رسم من أهداف مشروعة مع الإدراك التام لإنسانيته كإنسان يمثل محور الوجود في رحاب دين ذي رسالة عالمية لا تعرف الحدود فهو لا متناه، مشرب دائما إلى تخليص الإنسانية من براثن فلسفات أثبت التاريخ ضحالتها، ومحدوديتها «فالإسلام في مركز العالم الحديث حيث محت الحضارة التكوينات، والأوضاع الأخلاقية التقليدية حيث فرضت تكويناتها، وأوضاعها الصناعية فخلقت بذلك فراغا روحيا هائلا بدأ الناس يستشعرونه في العالم المتحضر، فهو بسبب روابطه العديدة بالنسيج الإنساني الراهن... هذا الإسلام هو الجسر الذي يصل ما بين الأجناس، والثقافات فهو عامل بلورة وعنصر جوهري، إذا ما أردنا اليوم تكوين مركب حضارة أسيوية، وغداً تكوين حضارة عالمية»¹ ولن يتأتى ذلك إلا بالاستثمار الدائم للطاقات التي تولدها الإرادة الدائبة، والرغبة في المزيد، كون أن الوثبة العملية الدافعة إلى سلوك الإنسان هذا المنحى المثابر، قد حققها الدين، وعمل على إيداعها الإنسان كمفتاح ضروري، ودائم لكل حالة ركود، أو إحباط قد تصيب الأنا المنتج، إلا أن استغلال هذه القدرات لا ينبغي أن يكون بمنأى عن المسار الجماعي العام حتى لا تتسم المبادرة بالفردانية المخلة، فلا بد من توجيه هذه الطاقات ورسم وجهات لها، بما لا يتعارض والخطوط الكبرى للعملية.

¹ - "مالك بن نبي" فكرة الإقريقية الأسيوية، دار الفكر 1979 ص 22.

«في المجتمع العربي، وفي العالم الإسلامي طاقات، وخامات بشرية ومادية، تؤهلها للعب الدور العالمي المطلوب، ولكن باستثمار هذه الطاقات وفق المثل العليا، والقيم الإسلامية وبشكل مقنن منظم يحولها إلى طاقات فاعلة، ويزيل عنها صفة العطالة، والكسل، وبتأثير من الفكرة، والإطار الروحي تصبح هذه القدرات قوى اجتماعية فاعلة يؤدي فيها الإنسان دوره بالشكل الذي يليق به، وبهذا الأسلوب يعالج مرض الفصام، أو ازدواج الشخصية الذي يعانيه الكثيرون بين شخصيتهم»¹.

إنّ هذه النقطة بقدر أهميتها، لم يتناولها إلا القلة من مفكرينا فالانفصام الحادث بين طرفي الإنسان كتجربة، وكفكرة كان سببا في تقويض، وإجهاض كم هائل من المبادرات، وأحيانا صرفها عمّا أريد لها نتيجة للتردد غير المبرر، أو الإقدام غير المدروس، أو الموجه.

فعندما نتساءل عن الصيغة التي استطاع بها نبي هذه الأمة وفي ظرف وجيز تشكيل ملامح دولة قوية، قائمة على قاعدة صلبة، نجد أنّ المشكل النفسي للأفراد الذي يولد التردد، أو لنقل السبب المباشر قد أمكن تجاوزه ليصبح سلاحا فعالا في معركة إثبات الوجود بعد أن كان سببا في الخمول، والركود الذي أدى إلى نتائج أبرزها الواقع، وحللتها التجارب، وكيفها التاريخ.

أما الجانب الآخر المشرق من فلسفة المسيرة المحمدية فكان ذلك القائم على تنسيق الجهود والعلاقات بين كل أطراف المشروع انطلاقا من أنّ الهدف هو الجميع، ولا حاجة للفرد ما لم يكن للطرف الآخر حاجته، وبذلك يكتمل الإعداد في علاقة توافقية

¹ - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 101

تقصي من أجديتها كل ما من شأنه تحويل هذه العلاقة إلى منحى ضدي لا يكرس الرهانات الكبرى ولا يقيم اهتماما لها.

«فالمشكلة التي نواجهها إذن ذات جانبين: جانب اجتماعي وجانب نفسي، وقد أرتنا أوجه التعارض السالفة أنه لكي نعالجها من كلا جانبيها، يجب أن تكون لدينا فكرة عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي، وتجري من جديد تركيب الشخص السليم المسلم بحيث يتماثل مع ذاته، في المسجد وفي الشارع»¹

إنّ فلسفة التوحيد القائمة على جدلية الوجود، والتمكين للإنسان في هذه الأرض بعد أن يعبد الله، ويؤمن بوحدايته، هي التي كونت في المتخيل الشعوري للفرد ضرورة تحقيق ذلك التناسق بين جانبين مهمين في حياته الدينية، والعملية يقتضيان التوجيه، والإحياء الدائم الذي لن يقوم به إلا الدين البارز كبطارية شحن للطاقات، وشحن للهيم، وتكسير للخمول والسلبية، الناجمين عن نكران هذا الدين أو عن سوء فهمه مثلما فعل العديد من المتصوفة الذين حصروه في نطاق العزلة، والخلوة على نحو ما كان يفعله الرهبان ظنا منهم أنّ لا حاجة للدين بالدنيا، وأنّ المشروع كله في هذا الوجود هو الهروب من واقع مشؤوم نحو رحاب آخر يروونه واسعا، وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن هذا.

إنّ "مالك بن نبي" نظر إلى فلسفة التصوف والعزلة نظرة فيها كثير من المنطق، والعقلانية، ورافع من أجل فكرته القائلة بضرورة إخراج الدين من بؤر الدجل التي تشبه إلى حد بعيد ما حدث في العصور الكنيسية المظلمة التي جمدت كل رغبة، أو مبادرة لتغيير الواقع، أو تفعيله نظير رؤيا قاصرة قوامها

¹ - "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع، ت/عبد الصبور شاهين، دار الفكر 1979 ص 100.

إشاعة السلبية والكمون من منطلق فاسد، فما الفائدة من الحياة إذن إذا كانت كلها تنحصر في معبد، أو كهف؟! والعيش عالية على الغير رغم أن الدين بعيد عن هذه الشبهة تماما؟!!

«إنّ الدين مركب القيم الاجتماعية، وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة حالة انتشاره، وحركته عندما يعبر عن فكرة جماعة، أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذريا دون إشعاع، أعني نزعة فردية فإنّ رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزاً عن دفع الحضارة وتحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم، ومسؤولياتهم»¹

فالمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه العقيدة يكمن في الإصرار على التغيير، والمبادرة، والضرب في الأرض باستغلال القدرات العقلية، والذاتية، التي أساسها الإنسان بما مكنه الله له على هذه الأرض، فلو نكصنا على أعقابنا، وانسحبنا من الواقع الحياتي بحثا عن الآخرة، تجردنا من مسؤولياتنا وكان علينا تحمل تبعات ذلك.

«فالمسلم دوره في الدعوة والتبليغ، ودوره في نشر الحضارة والمثل، وكلما ازدادت أساليب الحصار من قوى المادة، والقوة، وضيق الخناق، يجب أن يخرج من أعماق ذلك عزم قوي على العطاء من أجل توسيع دائرة الانتصار، وهذا الفعل هو صنيع الشخص المتزن المتوازن الذي يحسن تحويل المثل، والقيم إلى سلوك معيش يطبقه على نفسه، ويكون القدوة، والبطيعة التي تتقدم الصفوف حتى يسهم في صنع رصيد التاريخ»²

¹ - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي، ت/ عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بدون

تاريخ. ص 32.

² - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 104

بمعنى آخر، أنّ الإنسان المسلم هو ذلك المبشر بالحضارة المنشودة والداعي إليها عكس ما يعتقد الصوفية الذين حصروه في ملاءة العبادة، والجمود دون التفكير حتى في أدنى متطلباته الذاتية كالسعي لكسب القوت، فهو عالة على غيره من هذا المنظور، والإسلام لم يأت بهذا مطلقاً بل جاء داعياً إلى السعي، والعمل لتحسين أوضاع هذا الفرد فمنهجه قوة الفكر والذكاء، ووضع فيه مكامن التغيير لينطلق في إثبات ذاته، وقدراته وتفوقه بإرادة منه بعد تجاوز الحاجز النفسي الذي كثيراً ما قيده، وجعله رهين خرافات، وتصورات لفترة غير قصيرة، فجاء الإسلام مبشراً به ومنقذاً له من برائن التعصب، والجهل، والقابلية للاستعمار.

«فالمسلم ممثل لدور فريد لأنه يحمل شريعة فريدة بكل ما فيها تدفعه ليكون واعياً للخير، عاملاً من أجل الإنسان، فمسرح التاريخ متروك لدوره الرائد وإذا لم يقم بهذا الدور المعتدل الذي يحمل العدل سيترك فراغاً تنفذ إليه شرائع التطرف نحو المادية الصرفة أو نحو المثالية البحتة، وهنا تكون مصيبة البشرية، فعلى المسلم دور الدعوة، ومن ثم دور الشهادة على الآخرين بعد إبلاغهم، فكون الإنسان المسلم ممثلاً وشاهداً ليس أمراً حاصلاً باختياره، وإنما هو تكليف إلهي، وتشريف بإعطائه الدور الظاهر على كل الأدوار»¹

لأنّ الفلسفة التي يقوم عليها الدين الإسلامي ذات أبعاد حضارية قبل كل شيء، فهي تؤسس لهذا الفعل داخل الإنسان ذاته، وتفعله بما يزكي رغبته في الانبعاث، والتألق بدافع تركيبته القائمة

1- "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً ص 104

على حب التفوق، والانتصار التي تميز الإنسان بصفة شاملة. لقد أيقظ الدين الإسلامي في الإنسان كوامن الأشياء، وحركها وأوجد لها مناخا مناسباً "لانفجارها" ورسم لها فضاءاتها الماثورة حتى لا تحيد عن المسار الصحيح، وتخرج عما هيئت له، فأست نواة حضارة في ظرف زمني قصير لا يتجاوز العشرين وتوسعت شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً لتحتل بذلك عالمية الدور وتقوض أركان الحضارات الزائفة، الحضارات القائمة على فلسفة القوة، والقهر والمغيبة لدور الإنسان الفاعل المنتج.

لكن كل هذا عرف تراجعاً بفعل الردّة التي عرفها الفكر الإسلامي نتيجة لأسباب معينة، أهمها القصور في فهم العلم القرآني الذي شجع على شيوع الدجل، والركود المفضي إلى التداعي الحر بحيث بدأت تتكسر ملامح جاهلية أخرى، ونمطيات فكرية، وعقلية رجعية معدومة الإبداع، والاجتهاد قائمة على بدع ما أنزل الله بها من سلطان.

إنّ "مالكاً" كان منهمكاً شديد الاهتمام بهذه النقطة، وركز على توضيحها لأنها السبب المباشر في الهزة العنيفة التي عرفها الإسلام والأمة الإسلامية بما أحدثته من ثغرات، وفجوات أسهمت في تفتيت الخيارات الإسلامية وبالتالي الفرد المسلم الذي خالجه الانقسام الحادث في معتقداته، ودواخله بفعل موجة التشكيك في روافدها، وتبعاتها مما ولد فضاء يسوده التملل الذي يسبق التداعي، والاندثار وهو ما حدث فعلاً، بعد أن تفه الاجتهاد، وحصر العلم كله في ملاسنات الحيض، والنفاس، ومسح الجوربين من تركه حيث ألفت في هذا الإطار الرسائل، والكتب الضخمة ظناً من هؤلاء أنّ المعركة الأصلية تبدأ من حيث بدأوا، فتاه علماء الأمة، وحادوا عما وجدوا له.

«إنّ التخلّف بين الضمير، والعلم هو السبب المباشر في الانفصال الحادث في العالم الإسلامي "بصفين"، فالقرآن من حيث كونه نظاماً فلسفياً كان علماً يتجاوز في مداه آفات لضمير الجاهلي بطريقة فريدة، فنتج عن ذلك انفصال بين أولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية وأفكارها الاجتماعية، وشرائط الحياة التي جاء بها القرآن ليمحوها محواً من طبائع الناس»¹

فالهوة هنا بادية، وهي التي أفضت تداعياتها إلى ما عرفته "صفين" والناجمة عن سوء فهم لما جاء به القرآن كدستور للمسلمين، فأصبح بمثابة عامل انقسام بينهم، كل هذا ناتج عن صدمة أحدثت تحولا في تركيبية الإنسان المسلم، أو لنقل خلا كانت نتائجه متوقعة، ومنطقية لمقدمات فرضت نفسها على محيط هش.

«إنّ النهضة تكون فيما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي، هي حركة ضمير ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني وعن ركب الفكر العلمي الحديث»²

فالأساس العلمي لفكر الإنسان المسلم المبشر بالنهضة ينبغي أن يبني على حقائق دافعة تضع القرآن كدستور إسلامي واف، وتشجع على تطوير المناهج العلمية لفهمه، ومحاولات تدارسه، فالمشكلة حسب "ابن نبي" أننا لم نستحدث مناهج علمية كفيّلة بالكشف عن مكونات القرآن الكريم، ولم نجتهد حتى في محاولة فهمه، واستيعاب تجلياته، وأحكامه، ورؤاه ذات البعد الحضاري الأعمق.

¹ - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

² - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

فإذا ما أردنا أن نستفيد استفادة علمية من هذا الكاتب الجامع، كان علينا إحياء حركة دراساته، وأبحاثه في ميدان علوم القرآن والتفسير، وحتى فيما يتعلق بالأحكام فكل ما قدم إلى حد الآن يحتاج إلى تجديد، وإلى ضخ نفس آخر لإحداث وثبة حضارية أخرى، فلا بد من تعديل مناهج التفسير - على سبيل المثال - لأنها لم تعد تواكب هذا التغير في المعطيات الراهنة ولا حتى الفكر البشري ذاته فإنسان القرن الرابع الهجري ليس هو إنسان القرن الحادي والعشرين، لغة، وتفكيراً ونمط حياة، وتركيبية نفسية...

«مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يُعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مرَّ بها العالم الإسلامي»¹

إنَّ "مالك بن نبي" وقف على نقطة هامة، وبنى عليها معالجته للأوضاع الراهنة، وهي ضرورة تجديد الرصيد الفكري، والحضاري للأمة، وبعث نفس جديد وضخ دماء جديدة في جسدها حتى يمكننا النهوض والانبعاث بمعطيات أخرى، وبأهداف، وطموحات متجددة، وفقاً للعصر الذي نعيش فيه ونرتبط به، فمن غير المقبول أن نبني حضارة في القرن الحادي والعشرين بروافد، وفلسفات ومعطيات لم تعد صالحة الآن وهو ما زكته التجربة، وفرضه الواقع.

«إنَّ نجاح مسألة تحديث، وتعديل مناهج التفسير يعيد الصلة بين الإنسان، والإسلام، والعصر، فيتهيأ المناخ العقلي في ظل الفهم القرآني لتحصيل العلم، ولتطوير واقع الحياة بجانبها الاجتماعي،

¹ - "مالك بن نبي" .. وجهة العالم الإسلامي ص 139.

والمادي، وينهى هذا التغني الممل الذي يفترضه بعض الناس إعلاءً لشأن القرآن الذي لا يحتاج لما يأتيه من مديح البشر طالما أنّ الله - تعالى - قد تعهد بحفظه، فكلما اكتشفت حقيقة علمية أو نجح عالم في إحداث اختراع يحاولون القول لقد تحدث القرآن عنه في سورة كذا»¹ فمن خلال هذه النظرة، يتأكد لنا أنّ الكثير من الفلسفات تتميز بالرجعية، إن لم نقل تحتكم إلى الردة في إثراء تصوراتها.

إنّ القول بشأن كل ما اخترع أنه موجود في القرآن الكريم في سورة كذا.. وكذا هو تثبيط للإرادة الإنسانية الناجحة، والقرآن نفسه يثمن دور العلماء، وما يقومون، ويميزهم عن كثير من عباده، والآية صريحة في هذا المقام: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.

فإذا ما أرجعنا كل ابتكار، أو عمل مشهود إلى رافد واحد وهو القرآن الكريم - كما أشار الأستاذ أسعد السحمراني - فما جدوى أن يبذل هذا العالم جهوداً معتبرة، وأبحاثاً معمقة ليجد الرجعيين والمثبطين، والذين في نفوسهم مرضٌ يقولون: هذا موجود في سورة كذا، والآية كذا.. ألا خسئ الدجالون! «إنّ القرآن لم يأت قطعاً وبصورة شاملة، لا بالحساب العشري، ولا بالجبر، ولكنه يأتي بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور.. والأمر الجدير بالملاحظة هو أنّ تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين»²

¹ - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً ص 106.

² - "مالك بن نبي" .. إنتاج المستشرقين.. مكتبة عمار للطباعة والنشر، القاهرة 1970 ص 37.

فالكتاب المنزل على عبده محمد -صلى الله عليه وسلم- المتشابه الشامل لكل ما سبقه من طروحات، ورسالات لم يكن في حقيقة الأمر مجرد آيات مرصوفة ومحددة بل أن ما يحمله أعمق من ذلك بكثير، فقد جاء ليضع القاطرة على السكة، ويقدم العلاج، والدليل وي طرح المشكلة من زاوية أخرى غير مسبوقه متجاوزا كل الفرضيات، والتخمينات، وواضعا نتائج قطعية لمقدمات وأسباب ترجح استعمال العقل، وتحفيزه ليكون له الدور المطلوب في مثل هذه الرهانات.

«فالقرآن في واقع الأمر ليس موسوعة في الرياضيات أو الطبيعيات، أو غيرها، بل هو قواعد لمنهج يربط وينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وفيه توفير لمناخ يحض على العلم والإبداع لأعمار الأرض، وإذا ما وردت فيه بعض معطيات العلوم، أو حقائق العلم، فإن ذكرها على سبيل المثال لا الحصر لفتح الآفاق أمام العلم، لا إقفال الأبواب بوجهه تحت حجة أن كل علم هو في القرآن، ويجب هجر ما سواه، ففي مثل هذا الطرح تجن على الإسلام الذي أعطى العقل دوره، وفتح للعلم طريقة، وأثاب المشتغل به»¹

لقد أساء هؤلاء فهم الإسلام على حقيقته، وبالتالي تغييب دور الفرد الناجح، والمنتج امتداداً للمعركة الحقيقية المكرسة للتبصر، والتفحص، والتقصي فيما جاء به القرآن الكريم من أحكام منها ما تعلق بفلسفة البناء الحضاري للأمة الإسلامية، ومنها المتعلق بعلاقة هذا الفرد بربه القائمة على رابطة وثيقة مميزة تهيئه لاقتحام المعارك الحضارية، والحياتية بشيء من الثقة والاعتداد

¹ - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 107.

بالنجاح وهو ما غيبته معظم الرسائل الأخرى، فكان منطقيًا أن يكون القرآن منهجًا فكريًا سليمًا بحد ذاته يقوم على مخاطبة العقل، وتخليص الروح من الشوائب وتهذيبها نشدانًا للتكامل، وليس الكمال الذي يقلص من هامش التغيير، والعمل، والبحث المستمر.

ولعل بروز هذه الخاصية الإسلامية في فكر "مالك بن نبي" ودأبه على مناقشتها ما يجعله رائدًا في طرحه، مخالفًا لكل الاتجاهات التي حاولت حصار، وتهميش الأفكار النابضة بالجدّة، والساعية إلى التغيير المنتظر لأن المعالجة العلمية للمشكلات الكبرى هذه المرّة جاءت من فلسفة ثاقبة، وروافد ناجعة لمفكر ظلّ لفترة كبيرة يعاني التهميش.

فالمفكر "مالك بن نبي" بدت نظراته مخالفة تمامًا لما هو سائد في فترة يميزها الانحدار، والشعور بالخيبة، غير أنّ هذا الشعور لم يحجب عن مفكرنا النظر، والتمحيص في دواخل المكملات التي كانت سببًا في ظهور رجعية فكرية بسبب سوء فهم الدين الإسلامي لعوامل موضوعية، وأخرى غير ذلك قد يكون للاستعمار ضلع فيها.

«هكذا فهم "مالك بن نبي" الإسلام منقذاً، والمسلم ممثلاً، وشاهدًا، والطريق تحديث منهج التفسير، واللحاق بركب العلم فالإصلاح عنده بالعودة إلى مناخات يوفرها الإسلام كما كان الحال أيام السلف الصالح»¹

1 - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكرًا إصلاحيا ص 107.

نا ليقضه نالفة درج رة لا نالساها ملضعه مبيد له مه و لجانك
درافعا قبله لضعه ركة و هقي حنان عبا لميلس لير رة لجهنه نا رقا ن و هي
ربيعا و درالذاتنا لنا لشنا لوينوت و نينا مينا نه و و ما رحيلاضه
متمسما شصبا و درامعا و مبيغتا و شمله نه رحلفي رة نا رالمقا

"ربنا زب نباله" رجة رة فيمكسلا فيسلاضاه لة و و رعا
رلا لفالضه دلس رة رة انما ملعبي له لوتثقلنه ركة حبان
دة تجاب قمبالنا لالفة لا رشموت و دلسه تنا و رتا تله لجة لا
شكال شعا فيمعاا قجالعما نا لا ملختنما مبيغتا ربا قيدلسا
رلحفا مبعول عفا و و دخرية ك افسك نه تدلج ة رما و نه و رتا
رشموتنا رمالج ة بيبة ة تنفا رة

عكس مه لما لعلنا خفالضه حنا لحنه نيب "ربنا زب نباله" رجمالك
رعمشا انه نا ربيذ دقبيضا رعمشا و دالعا لا له زيب ة رة رة
تلكمما رلعا و رة رحيصفتا و دالعا لالفة نه ربيصبا ما
زيبا و رة و مه ربيصبا قير رة ربيصبا رة لبيصبا تنال رتا
ن و رة رة نباله ربيذ رة رعا و دقيد منه مه راما رعا ركمسلا
لوية و لنة المعنسا

دكلمه ولسما و دانقنه وكمسلا "ربنا زب نباله" رة انه
ملعا ربيذ رة لعا و د ربيصفتا و جهنه شبيصتا رقي لعا و دانه لسه
نال لمة وكمسلا له رة رة تالخلنه ربا ة رعا و لمة ركمسلا
«رجمالسا سفلسا و ليا رالعا»¹

٢٥١ رة لبعكسلا لالفة رجمنا زب نباله... "رمة مصلحا عفا ٢٤"

الفصل الثالث

- 1 - مفهوم الحضارة وفلسفتها عند "ابن نبي"
- 2 - شروط الحضارة، ومحاورها.

ثالثا لبحفا

"رجبنا نيا" عند لوتفسافه ة لبحفا و موفه - ١

لهي و لعه و دة لبحفا لبحفا - ٢

1- مفهوم الحضارة، وفلسفتها "عند ابن نبي"

كما سبقت الإشارة إليه، فإن قيام حضارة ما، مرتبط دائماً بوجود محفز حادث يحرك دواليب الفعل الحضاري ويهيئ الأرضية المناسبة لتأسيس الانطلاق.

والمحفز في نظر مفكرنا لا يكون إلا دافعا دينيا يكسر المعوقات، والحواجز التي تحشر الإنسان في متاهات الجهل، والخنوع، والسلبية الغارقة في ترسبات الأحكام المسبقة في غياب منهج علمي واضح صريح.

«إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان لأنها تضع حاجزاً بينه، وبين الهمجية»¹

فهي منه على كل حال، تنتج عن تحريك كوامنه، واستثمار وتوفير الفضاءات المناسبة لها لتوجيهها الوجهة المناسبة، وهي عليه لكونها جهازاً مناعياً يضع كل رغبة في الانكماش أو التكاسل، بل يدفعه دفعا إلى إثبات ذاته، ووجوده الفاعل من خلال المساهمة في حركية البناء المتكامل الذي يجسده مساهمة الأفراد كل من موقعه ليقوم هذا الصرح الحضاري ويحقق الإقلاع.

غير أن مفكرنا يؤسس لهذه الفكرة ضمن السياق الطبيعي لقانون الكون، أو ما عرفه بالدورة الحضارية، فهناك حضارات تتهاوى وأخرى تقوم على أنقاضها وهكذا، فكل حضارة تمر بمرحلة جنينية هي مرحلة التبشير. أو الإعداد، ثم مرحلة طفولة، ثم قوة،

¹ - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة"، التبیین عدد 19.. ص 89 .

ثم شيخوخة وضعف لتستمر هذه الدورة.

وموقعنا من كل هذا امتداد لمدى قدرتنا على إثبات نجاعة طروحاتنا ومدى صلاحيتها لأكبر فترة زمنية ممكنة.

إلا أن هذا القول كثيراً ما انتقد بشأنه "مالك بن نبي" رغم وجود بعض الإشارات إلى هذه الفكرة في كثير من الفلسفات العالمية قديماً، وحديثاً.

يقول "محمد شاويش": «وفي اعتقادي أن فكرة الدورة الحضارية هذه هي في غاية العمومية والتجريد شأن أفكار فلسفة الحضارة، والتاريخ عموماً، ولا يمكن البرهان القاطع على صحتها، أو خطئها، ومن هنا فهي ليست فكرة علمية بحصر المعنى، ولكن هذه الفكرة قادت "بن نبي" إلى تحليلات عميقة وخصبة لشروط النهضة الحضارية وهي متفرقة في كتبه، وكرّس لها كتاباً خاصاً هو "شروط النهضة"»¹

ومهما يكن من أمر، فالواقع أثبت صحة ما وصل إليه "مالك بن نبي"، فكل الحضارات العالمية عرفت حقبا تميزت بالقوة بعد التداخي، والإنزواء، وإن اختلفت فترة القوة من حضارة إلى أخرى إلا أن النتيجة واحدة ختامها هنة، وضعف، وفي تاريخنا الإسلامي ما يثبت هذه الفكرة، -فعلى سبيل المثال لا الحصر- "الدولة العثمانية" التي احتكرت سلطان القوة، وكانت بحق دولة عالمية لم تستطع أقوى الدول مقارعتها، والوقوف في وجهها حتى حان موعد زوالها، لينخرها الضعف، وتشتت قواها.

غير أن هذا النموذج ليس هو القدوة، ولا فكرة "مالك بن نبي"

¹ - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين عدد 19.. ص 89 .

فكرة مطلقة، ومادام الإنسان هو الثابت الوحيد في هذا البناء، فنعتقد أنّ المشكلة بكاملها تكمن فيه وفي روافده، وتركيبته، فحتى وإن ثبتت فكرة الدورة الحضارية، فلأنّ الإنسان هو المكرس لها بفعل رجعيته، أو سوء تكوينه، وضعف إيمانه بإرادته، ونجاحه حيث نجد في فترة تداعي الحضارة الإسلامية أنّ إنسان هذه الفترة تميز بنقص إيمانه، واهتمامه بقشور الأشياء بدل القضايا الكبرى، ونكوصه عن الجهاد، وبروز أنه القنوط بصورة ملفتة للانتباه، وبالتالي نقول أنّ المعركة الحضارية بعيداً عن قوانين الطبيعة التي من شأنها تثبيط العزائم، هي معركة الإنسان وحده، وتحقيق الفعل الحضاري المستمر القوي أمر ممكن ما توافرت الفضاءات الملائمة، واستمر الإنسان متشبعا بقدرته على النجاح، متشبثا بدوره الحضاري، مؤمنا بالله، متجاوزاً لكل حواجز ذاته النفسية، والسوسولوجية.

فحتى وإن كانت فكرة الدورة الحضارية رائدة إلا أنّ الإيمان المطلق بها يكرس ردة أخرى تثبط كل محاولات الانطلاق، وبالتالي فهي نسبية إلى حد ما، مناقشة أبعادها من قبل مفكرنا كانت مناقشة علمية ذات أبعاد حضارية، فليس المقصود هو الفكرة ذاتها بل ما وراء الفكرة، وهو ما عبر عنه "ابن نبي" والفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها كما يقول "كروتشه".

فالحضارة هي نتاج طبيعي لحركة اجتماعية واعية سهر على تجسيد خاصيتها، وفلسفتها في إثبات أحقيتها بالدور المنوط بها منهجا، ومساراً، والغاية كل الغاية في تأصيلها، والعمل على التبشير بها، والتمكين لها ما استطاعت هذه الحركية الاجتماعية إلى ذلك سبيلا.

فالبعد الإنساني الشامل هدف من أهداف الحضارة الواعية ذات

الروافد المعرفية، والدينية، والعلائقية لأنّ التأثير، والتأثر عنصر وارد، ومحفز أيضا إذا ما تم أخذه بعين الاعتبار.

إنّ الجماعة البشرية الملائمة والمستعدة لتحريك الفعل الحضاري وإنشاء مجتمع «عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإنّ لها حياة دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، وخلاصة القول: أنّ الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما نطلق عليه اسم الحضارة»¹.

1 - "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع ص 16.

2- شروط الحضارة ومحاورها

إنّ الأساس الذي تقوم عليه الحضارة في فكر "مالك بن نبي" ينطلق من ضرورة وجود إنسان قابل للتحرّيك، والمحاولة المستمرة للنجاح، يضاف إليه وجود حدود أو وحدة ترابية أو إقليم يمكن تأسيس الفعل الحضاري، إضافة إلى عامل الزمن بصفته عاملاً مهماً يحدد مدى نجاعة هذا الفعل، واستمراريته، فلكي نقيم حضارة لا بد من توافر شروط ثلاثة هي:

- الإنسان.

- التراب.

- الوقت.

ويقابل هذه الشروط محاور ثلاثة لا يمكن القفز عليها أو تجاوزها أو إحداث تقديم أو تأخير فيها، وهي:

- تكوين عالم الأشخاص.

- تكوين عالم الأفكار.

- تكوين عالم الأشياء.

والعامل المهم في تركيب الشروط الثلاثة الأولى، والمحاور المتممة للبناء هو الدين الذي يقوم بدور المزج والتفعيل حسب "بن نبي" أو ما عبر عنه ب: "مركب الحضارة" الذي ليس في الإمكان تغييبه أو تهميش دوره فهو ثابت، ومؤكّد.

يقول "محمد شاويش": «دور الدين إذن في الحضارة هو دور العامل المركب لعناصرها، واختفاء هذا الدور يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب، أي تحلل الحضارة.

و"ابن نبي" يرى أن هذه الفرضية تنطبق على جميع الحضارات فالحضارة الغربية في رأيه بنتها الفكرة المسيحية التي دفعت البداوة الجرمانية بعد ستة قرون من الإسلام إلى تكوين هذا الكيان الذي أسسه "شارلمان"¹.

فالفكرة الدينية التي تعتبر حجر الأساس في كل بناء لا تقتصر على الحضارة الإسلامية وحدها، بل كل الحضارات القائمة والشاهدة حتى الآن على صدق هذا المنطق سواء كانت مسيحية، أو شيوعية، أو غير ذلك.

المهم أن الرّاهن الحضاري أثبت في أكثر من مناسبة صحة فرضية "مالك بن نبي" مما يعني ارتباط أي بناء أو نهضة ارتباطا وثيقا بالجانب الخفي الآخر للروح البشرية، الجانب الديني للشعوب القائمة على تقديس الدين، والجانب الميثولوجي للشعوب ذات الخاصية الدينية المحدودة، والمعطيات المختلفة عن غيرها من الشعوب الأخرى.

فالظاهر مثلا أن الشيوعية لم تحركها الفكرة الدينية - كما اعتقدنا سابقا - غير أن "مالك بن نبي" يرى أنها لم تشذ عن القاعدة، وفلسفتها قامت على أساس ديني، وإتّما منظور مخالف لخاصيتها العربية الإسلامية فما هو يقول: «تعتبر الشيوعية النظرية قبل كل شيء فكرة "ماركس" ولكن هناك شيوعية واقعية هي في جوهرها نشاط المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي، ومحددة هنا، وهناك بنفس سلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناتج»²

¹ - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين عدد 19.. ص 89.

² - المرجع نفسه ص 54.

لقد حاول "ابن نبي" إيجاد الصيغة الملائمة لبلورة فكرته القائمة على وجود المركب الحضاري المتمثل في الفكرة الدينية التي توجد الفرص المعززة للتفاعل الكهرو-حضاري المولد للمشهد المرغوب فيه من قبل فئة أو جماعة تنطبق عليها صفة التغيير نحو الأفضل والفاعلية.

فإذا ما انكفأت جماعة ما يربطها وازع ديني هادف ومنسجم مع تطلعاتها، وآفاقها، وحققت الانسجام المطلوب الذي تتشده الفكرة الدينية، فقد غيرت من وضعها السلبي نحو المجاوزة، والمبادرة، والتأسيس لمشهد معين من المشاهد الحضارية المنبثقة، والمتألقة تنعكس عليه خاصية الجماعة الأولى - المنطلق.

إذ أحدثت تلك الرغبة الناشئة عن المحفز الديني، وثبة مطلوبة أدت إلى تقليص هوامش الانكفاء على الذات، والشعور بالضعف وأحيانا باللاجدوى، لتنتج واقعا مغايراً بمعطيات جديدة، وبأسلوب تواق إلى فضاءات حضارية أرحب، وأوسع بعد تجاوز المرحلة الصعبة، والمهمة في نفس الوقت.

يقول "مالك بن نبي": «تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية تلك التي تطبع حياة الإنسان، وعمله على وجه البسيطة»¹

1- "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع. ص 56

خمنلقا خت رطفه ق ولبا خمناکما قفیسما العیبا "رینا نبیا" یاه له نفا
رینتا خینینا ة رطفه رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
عوشما عامما رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا

مجموعه نفا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا

خب ولبا خینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا

هنا نه شای له وه خینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا
رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا رینتا

1- تكوين عالم الأشخاص

ينطلق "ابن نبي" في معالجة هذا المحور من زاويتين مختلفتين إحداهما تتعلق بموقع الإنسان، وعلاقاته في مجتمعه، والثانية تتعلق بالإنسان ذاته.

فالفلسفة التي يقوم عليها هذا المحور تنطلق من ضرورة إيجاد مناخ اجتماعي متلاحم، ومنسجم ضمن شبكة علاقات قائمة على التفاهم والرغبة في مساعدة الآخر، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق ما نصبوا إليه في ظل مجتمع يسوده التفكك والانحلال، غير أن السؤال المطروح الآن: كيف يمكن تجسيد هذه اللحمة؟

يوجهنا "ابن نبي" في هذا الصياغ إلى الفكرة التي انطلق منها أساسا لتجسيد أي فعل حضاري، أي الفكرة الدينية فهي بوسعها القضاء على الشوائب والعلائق التي تساهم في تفتيت المجتمع، وتثبيط عامل التواصل، والانسجام، والتواؤم الخلاق وهنا يبرز الدور المهم لعنصر الدين، فلا يمكن تصوّر انطلاقة ما، أو انبثاق حضارة من وسط اجتماعي متهاك، ومفكك يحمل بذور تداعيه حتى قبل أن يولد. ويضرب لنا مثلا في هذا الإطار بما فعله الرسول الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي وضع نصب عينيه تحقيق التواصل، والتراحم، والتآخي بين المؤمنين كنواة أولى لمجتمع صالح، ناجح «...كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»

- حديث شريف -

إنّ الغاية من كل هذا تكريس قاعدة صلبة لا تخلخلها عوامل التهرية، والتعرية المواقبة لكل فعل حضاري نظير عامل الزمن الذي يصب في هذا المنحى، فالتجربة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ من أسباب تلاشي كثير من الحضارات، غياب الانسجام بين مكوناتها المجتمعاتية عقيدة، وتقليداً، ونمط حياة، وهو ما جعلنا نقف وقفة تقدير لما وصل إليه مفكرنا في هذا المحور، فالمعركة كل المعركة هي البناء المجتمعي القائم على التكامل، والتفاعل الإيجابي، وكل بناء يلغي من حساباته هذا العامل، محكوم عليه بالتداعي والانهيار.

وها هو "ابن نبي" يذكرنا بالحديث الشريف: «توشك أن تتداعي عليكم الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، قيل أومن قلة يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل»

فالمشكلة أساساً ليست في الكثرة بقدر ما هي قوة اللحمة والرابطة التي تعصم المجتمع من الانحدار المفضي إلى الهلاك: «لقد كان هذا الحديث ضرباً من التنبؤ والاستحضار: استحضر صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، أي عندما لا يعود مجتمعا بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل»¹

فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانياً في تفكيره، وفي تكوينه، وفلسفته، وإنما يجب أن يدرك تمام الإدراك أنه ضمن نسيج اجتماعي قائم على التكامل، والتفاعل، والإنتاج فالشمولية في مفهومها الإيجابي هي الرصيد الذي يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد، وتعزيز قدراته العملية، والعلمية

¹ - المصدر نفسه ص 26.

والإنتاجية التي تصب في أتون التفعيل الحضاري المنسجم. أما الجانب الثاني فهو ذلك المتعلق بالفرد ذاته ككيان له مميزاته، وقدراته، معتقداته، وكوامنه، وهذا العنصر أو الجانب هو الذي ينفذ من خلاله الإنسان إلى إبراز دوره ضمن النسيج الاجتماعي الرأهن بما اكتسب من ثقافة، ووعي، وخبرات بعد أن يدرك دوره الحقيقي والفاعل.

«والثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ويقدم له الروابط الاجتماعية»¹

كما يدخل في هذا التركيب مجموعة من العوامل النفسية، والبيولوجية التي تبحث عن فضاء يحقق له ما ترغب في تفرغته أو إفضائه ويعطي لها هامشا عمليا محفزاً ومنشطا كغطاء عملي مشروع بما يتوافق. والفلسفة المعتمدة، والموجهة لمسار البناء الحضاري الذي يقوم عليه نظام المجتمع كوحدة إنتاجية لها خاصيتها.

لقد وقف "ابن نبي" مطولا عند هذا المحور، وكرس له كل اهتماماته لأن البداية تنطلق من هنا، فالمجتمع المبدع الخلاق الذي يستطيع تحقيق الوثبة الحضارية المطلوبة، مجتمع يقوم على فلسفة سد الثغرات المؤدية إلى تفتيته، ويسعى إلى تهيئة أفراد تهيئة مناعية ضد الانشاقات، والتداعيات الموبوءة المؤدية إلى الهاوية والتاريخ قدم لنا كثيراً من النماذج، وفي الحالتين، فعن النموذج الأول نجد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المبني على التراحم، والانسجام والتكافل، حيث كان من نتاج قيام حضارة كبرى

1 - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة" .. التبيين عدد 19.. ص 91.

في ظرف زمني قصير بعد مرحلة وهن، وضعف.

أما عن النموذج الثاني، فالأمثلة كثيرة في هذا المضمار أهمها ما عرفته الدولة العباسية أيام انحطاطها من تفكك، وتناحر، وشيوع للجريمة والفاحشة، وغياب العدل، وهو ما عرفته الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة لأنّ فلسفة الكيان الاجتماعي تلاشت، وأدت إلى تدهور العلاقات، وغياب الانسجام والشعور بالمسؤولية الاجتماعية فكان من الطبيعي اندثار هذه الدولة في غياب وتراجع الوازع الديني الذي كثيراً ما أسهم في تجديد، وبعث هذه الأنسجة الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض، والنتيجة في النهاية واحدة.

2- تكوين عالم الأفكار

هو المحور الأوسط في تشكيل المشروع الحضاري ذي الأقطاب الثلاثة، وما يميز هذا المنطلق أنّ الرافدين اللذين يؤسسانه أحدهما مرتبط بالمحور السابق الذي يدخل في تركيب شخصية الفرد الذي يعتبر مفتاح الحضارة نمثل البواعث الدينية التي تعتبر في المسار العام لهذا مرجعا لا يمكن الحياد عنه، أو إقفاله.

أما الثاني فهو الداخل في القدرة على الاكتساب، ومدى ما تقدمه الفلسفات العلمية، والثقافية من محفزات للطاقة الاستيعابية للفرد - المشروع - يدخل في هذا المنحى أيضا المكتسبات السابقة للصيقة بمستوى الفرد، والمميزة له، غير أنّ الثقافة ليست هي الخبرات العلمية دائما، فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع، أما العلوم والخبرات العلمية فإنّ لها نقاطا، وأساسا، ونظريات مشتركة، وإن اختلفت وسيلة، أو طريقة اكتسابها من منهج إلى آخر إلا أنّ التجربة العلمية في الحالتين لها نفس البعد، والنتيجة.

إنّ فهم "مالك بن نبي" للثقافة يختلف عن المفاهيم الكلاسيكية المعروفة، فهو يراها ذلك الكم المترابط من الصفات، والقيم، والخصائص المكتسبة طيلة مرحلة زمنية تقاس بحياة الفرد المتواجد داخل محيط أو نسيج اجتماعي، فهي: «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه، وشخصيته، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أنّ هذا التعريف يضم بين دفتيه الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان، ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد»¹

إنّ الثقافة بهذا المفهوم هي الرّاصد الأولي الدّافع إلى المبادرة، والحاجة إلى التغيير، وإثبات الشخصية الاجتماعية لمجتمع ما، والتي لا تكون إلا حضارة ترتبط أيما ارتباط بالرصيد، فهو المنطلق، والمحفز، والموجه نحو اكتساح ميدان التنافس، ولا شك في أنّ من أسباب تداعي حضارتنا الانبهار بثقافات الأمم الأخرى، والانسلاخ عن قيمنا، ومقوماتنا، وثقافتنا المعبرة عن الهوية بمفهومها الشامل.

يقول د/ "علي أسعد السحمراني": «الثقافة هي المهد المنشئ لشخصية الإنسان، تفرض عليه قيمها وقواعدها، وبالغزو الثقافي الأوربي ازدادت حركة الاغتراب، وقوي نفوذ الاستعمار الذي

استقر في عمق قناعات بعض الناس بتأثير من الفكر الأوربي»¹ وعليه، كان من الضروري استثمار هذه النقطة التي يرى ابن نبي " أنها مشكلة المشكلات، تدخل في تنشئة الفرد الأولى، وفي منطق تفكيره، وفي عوامل اكتسابه للخبرات العلمية، وحتى في نمط حياته كيفما كان، والحال إذن هو العمل الدائب على تثمين المركب الثقافي للفرد الذي نسعى إلى إثراء أفكاره، وتكوينه دون أن نحدث فجوة، أو انفصاما في مكتسباته جميعها حتى تكون الدعامة المثلى لكل نهضة مبدؤها الاستفادة من الأخطاء السابقة الموهلة في تهميش القيم، والمكتسبات الحضارية.

فالثقافة كمكتسبات من شأنها تحصين الفرد، وتقوية مناعته ضد المثبطات من جهة، وضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الذوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة والاستلاب المؤدي إلى تغييب مهمة الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب، وما يتبع ذلك من ترد، واضمحلال للهوية، أو الخاصية التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها، مما يعطي مناخا ذا صبغة استعمارية تتسرب بفعل الزمن، والمنهج المدروس إلى دواخل الأفراد لنجد أنفسنا بعد مرحلة من التضليل، قد أصبحنا أكثر قابلية للاستعمار وأكثر قدرة على التكيف مع ما يأتي به، وهو ما كان يبدو أشد غرابة عنا في مرحلة سابقة، مما يفسر الفترة الزمنية الطويلة جدًا التي بقي فيها الاستعمار في الجزائر إذ تجاوزت القرن وربعاً، فالمستعمر الفرنسي نجح في التغلغل إلى فضائنا المتميزة والمحصنة وتمكن من السيطرة على تفكيرنا، وسلوكنا،

1 - "د/ أسعد السحمراني" .. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ص 206.

وحتى مقوماتنا بفعل الخطة الاستعمارية الناجحة، والراغبة في طمس كل الملامح، والصفات المكونة للفرد الجزائري في تلك الحقبة.

إنّ قراءتنا المتعمقة لمحور تكوين الأشخاص يجعلنا نقر أنّ فلسفة البناء لدى فكر "مالك بن نبي" توظف مجموعة من المفاهيم الواقعية والتي من الواجب أن يتم غرسها في الفرد الذي يحرك هذا المشروع من أمثلة ذلك أن يدرك تمام الإدراك أنه قبل المطالبة بالحقوق عليه القيام بالواجبات فالوسيلة الوحيدة لتحصيل الحق هي القيام بالواجب، وليس العكس، والوصول إلى هذه النقطة من المفاهيمية المكرسة في اللاشعور الفردي لا يكون إلا بإعداد متناسق وتحفيز مستمر حتى يعلم كل فرد حقيقة المعركة المنتظرة معركة النهضة، والانبعاث، والتشيؤ الحضاري بأبعاده، ومتطلباته.

إنّ هذه الرؤيا المتألقة لمفكرنا لو طبقناها كعامل حضاري على مجتمع ما كالجزائر مثلا، لوجدنا الأسباب الكامنة وراء التراجع الذي يعرفه وطننا كقوة إقليمية، وحضارية تعيش مرحلة صعبة هي مرحلة ما بعد الحضارة.

فالفرد الجزائري من أشدّ الأجناس البشرية مطالبة بالحقوق، ولكنه في مقابل ذلك لا يقوم بواجبه على أحسن وجه، أو ربما لم يؤده مطلقا، وهنا تبرز المفارقة، وتتأكد رؤيا "مالك بن نبي" فيما هو سائد الآن، بل إنّ الشعور أو الإحساس بمسؤولية الدور الذي يمارسه الفرد غائب تماما مهما كانت طبقتة، أو درجة تحصيله العلمي، أو مستواه الثقافي ولا تكاد تجد نسبة 10% من الأفراد الذين في وسعهم تحقيق الإقلاع الاقتصادي، وتجاوز المرحلة الراهنة الصعبة رغم الإمكانيات الاقتصادية المتاحة والكامنة،

والتي غالباً ما حركت مطامع الدول الكبرى.

إنّ المشهد المائل أمامنا كنموذج لمجتمع ما بعد الحضارة يقر أهمية محور تكوين الأشخاص من مبدأ إحساسهم ووعيهم بدورهم الكامل، ومسؤوليتهم في نفس الوقت عن الأوضاع المتردية التي يعيشونها، وهو ما تؤكدّه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

فالإقلاع النموذجي يكون من الداخل بدءاً بذواتنا، وتركيباتنا النفسية والشعورية التي ينبغي أن تتغير، وتحديد عن منحائها السلبي نحو الإيجابية المكتملة، والمتممة لأجزائها بغية تجسيد الكل.

إنّ الشعور السائد بالإحباط المولد لتفاسير، وآراء تصب كلها في نطاق الخمول، والبحث عن الرجل المنتظر، أو النظام الاقتصادي المنشود، أو السياسة المطلوبة، كلها مجرد نزوات لا تقدم ولا تؤخر ببساطة لأنّ المشكلة الأساسية فينا، لا في فلسفة الأنظمة والنظريات الاقتصادية، ومادام المشكل كذلك، فلن نصل ولو نهجنا كل المناهج الاقتصادية، والسياسية المتألفة في العالم، بل أننا نضيع وقتنا سفهاً، وكذباً على أنفسنا، وذواتنا الواهمة، المتشبهة بألوية من فراغ. يقول "محمد شاويش": «ومن هنا فإنّ مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سليمة داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى، وهي بلا شك إن قامت ستجبر البناء الفوقي على أن يتمثل معها وهذا معنى الحديث الشريف: «كما تكونوا يولى عليكم»¹

إذن، فالمبدأ الباعث على تغيير الواقع نحو الأفضل، قوامه الفرد

1 - "محمد شاويش" "مالك بن نبي وشروط النهضة" .. التبیین عدد 19.. ص 95.

الذي عني به "مالك بن نبي" عناية فائقة، فهو أهم مشروع على الإطلاق في معركة البناء، ووقوف مفكرنا على هذا المبدأ، والتركيز عليه لم يكن وليد تخمين عابر، وغنما جاء كنتيجة لدراسات معمقة، ودقيقة ما كان لها أن تتأكد لولا الاهتمام البالغ من قبل "مالك بن نبي" بها، وإحاحه الشديد على أن نقطة البدء في كل مسار له أبعاد حضارية تنشأ من مدى وعي الإنسان لرسالته، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به في نسق علائقي متفاعل بعيداً عن الانعزال، أو الفردانية المفرغة لإنسان من خاصيته الفاعلة، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة.

«لا ننتظر التغيير إذا كمنجز لقوة خارجة عنا: شخص أو دولة، أو وصفا جاهزة وحيدة تحل المشاكل في طرفة عين. وكما قال بن نبي -رحمه الله-: لاشك في أن عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للحضارة تلك العقائد التي تمثلت عندنا اليوم في أسطورة: "الشيء الوحيد"، و"الرجل الوحيد" الذي ينقذنا...»

فالتاجر الذي تتجح تجارته يجزم بلا تردد بأن النجاة في الاقتصاد وآخرون يرون الشيء الوحيد في البيان، وتزويق الكلام، وهكذا ننتقل من وهم لنتخبط في وهم، ولا ندري كم من السنين سوف نقضيها لنذكر عجز "الأشياء الوحيدة" عن حل المشكلة التي هي مشكلة الحضارة أولاً، وقبل كل شيء»¹

هنا يضيف "ابن نبي" فكرة أخرى تتمثل في ضرورة أن نكيف قدراتنا على تقنية إيجاد البدائل والحلول بدلاً من حصرها في زاوية واحدة تفضي إلى صدمة لسنا بمنأى عنها، ففلسفة "الرجل الوحيد" التي تبنتها الكثير من الأنظمة العربية كانت وبالاً،

¹ - "مالك بن نبي" .. شروط النهضة ص 158.

وشرًا مستطيرًا، فمجرد ذهاب أو وفاة هذا الواحد الأوحده تتهاوى الأمة، ويستباح المحظور وتخر القوى، وكان هذا الفرد ذاته هو المشروع الحضاري بعينه.

والمؤكد هو أن استمرار الفكرة، وفعاليتها هو المؤشر الحقيقي، والوحيد على مدى قوة، وامتداد هذه الحضارة، أو تلك، وليس من العلمية في شيء ربط مصير أمة، أو مجتمع بشخص وإن كان يحمل الهم الحضاري- فمجرد نهاية هذا الشخص المحتومة يفرط العقد، ويتهاوى البناء، فهل المعركة الحضارية معركة شخص، أم فكرة، أم كليهما معا؟! لقد حاول "مالك بن نبي" الربط بين هذين الوجهتين على فرضية التكامل، غير أن فلسفة الفكرة قائمة ومستمرة كشرط لبروزها، فهي مسار لا متناه ومتجدد في نفس الوقت بما يخدم التحولات الكبرى والمعطيات الراهنة التي يتفاعل معها المشروع الحضاري من جهة المسيرة العلمية لها، فالزمن يتسارع، وتتسارع معه حركة البناء، والتطور بصفة شاملة، ومذهلة تجعل من أمر الواقعية، والمواءمة أمرًا حتميا لا محيد عنه لأن «من لا يعيش الواقع لا واقع له» كما يقول "ابن قيم الجوزية"، فالمعطيات إذن تتغير، والموقف يتطلب المرونة الكافية لتدارك التأخر الناجم عن هذا التغير الذي يبقى ظاهرة صحية تدل على سلامة المسار الحضاري المتبع، لأن التطور في حد ذاته صفة طبيعية ملازمة لهذا المسار.

أكيد أن ما يقتضيه المشروع النهضوي من مرونة واكتساب للمبدأ الأساسي كفكرة، وكمناطق من قبل الفرد، كفيل بالإيغال في مكنونات المبادئ والقيم والأفكار التي من المفترض أن يكون

الفرد وسيلة تكريسها، بعد استيعابها منتجا، لا استيعابا جاهزاً، فالجاهزية لا تخدم المبدأ، ولا تتسع لاستخدام العقل، وبالتالي تهيمش الخلق والإبداع، والقدرات التي يتمتع بها الإنسان ونحن أحوج ما نكون إليها، فالأصل ليس الحل، وإنما تقنية، وطريقة التحليل وفق منهج سليم، وأسس علمية مدروسة، مما يدعونا إلى التركيز على أهمية المكتسبات الثقافية التي تنمي هذه الصفات، وتوفر لها المناخ المناسب الذي يربط بين أجزاء التركيبة السوسيو-ثقافية للإنسان المتجدد، لأن «دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولاً، وبالذات، فهي الأتون الذي تصهر فيه كل العناصر الأساسية الداخلة في تركيبة المشروع الحضاري الذي منطلقه، ومبدؤه الفرد في نطاق الجماعة. تحتل الثقافة مرتبة رئيسية في تكوين الفرد وبناء شخصيته، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره، وتطلعاته، والذي تتحدد فيه قيمه وأهدافه.. هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد»¹

وحتى يتفاعل هذا المزيج، فلا بد أن يستمد قوته من الانسجام الحاصل بين المكتسبات السابقة والتطلعات السياسية كمصب واحد قائم على تحقيق الهدف الأسمى المرتقب، فنكون بذلك قد أوجدنا المناخ الملائم، والأرضية المناسبة للشروع في خطوات عملية

1- "مالك بن نبي" .. آفاق جزائرية ت / الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، بدون تاريخ

علاقة وإن بدت للوهلة الأولى بطيئة، ولكنها تصل في آخر المطاف إلى تجسيد الهدف دون هتات، أو ردة، أو انحراف من شأنه تقويض كل ما تم التخطيط له شرط أن تتناسب التوجهات السياسية مع الخاصية الاجتماعية من عادات، وقيم، وواقع يختلف عن المجتمعات الأخرى، فالأولوية كل الأولوية لترجيح المعطيات المحلية التي تبنى على أساسها الافتراضات، والأهداف السياسية حتى لا تصاب تطلعاتنا بالشلل، والنكوص نتيجة للتناقض الحاصل بين الأهداف، والمعطيات الراهنة مما يعني أننا زرعنا أسباب الفشل بمجرد إلغاء هذه النقطة من حساباتنا، وبالتالي فمن الضروري التوجه مباشرة إلى عملية الربط بين الأهداف السياسية، والمقومات الاجتماعية، والأخذ بعين الاعتبار كل ما من شأنه تحقيق التناسق بينهما على أساس المرجعية الثقافية.

«لابد أن نعرف الثقافة على أنها توجه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، وتحقيق مكانة في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع.. أما السياسة فإننا نحددها على أنها توجيه الطاقات الاجتماعية لتحقيق بناء المجتمع في الداخل، وتحقيق مكانة في الخارج، على أننا حينما نحلل الطاقات الاجتماعية بصفة عامة نرى أنها تتضمن أولاً وقبل كل شيء الفرد كأداة، وهدف، فالطاقات الاجتماعية تتبع من الفرد وتعود إليه..»

إذن هناك تضامن بين الثقافة، والسياسة، وليس ترتيباً، وأسبقية.. والتوفيق بين الثقافة والسياسة يتحقق عن طريق الفرد

لأنه هو العنصر الواعي الموجه للطاقات الاجتماعية»¹ وعموماً، فإنّ التركيبة الفكرية للفرد الواعي ينبغي أن تحقق الانسجام بين ما اكتسبه الفرد من قيم، ومبادئ، وعادات، وبين ما يمكن أن يكسبه من خيرات، ومعارف مع إيجاد الفضاء السياسي الذي لا يتناقض مع هذه المعطيات حتى لا نخلق ذريعة للفشل، ولا يحدث الانفصام المفضي إلى تلاشي الأهداف المرسومة مسبقاً، وهو ما يثبته واقع الأمة العربية اليوم.

3- تكوين عالم الأشياء

وهي المرحلة الأخيرة من مراحل التأسيس الحضاري بوصفها ثمرة للجهود السبّالة المبذولة في راب الأانفصام المميز لإنسان ما بعد الحضارة الخاضع للأهواء، التائه في بؤر البحث عن مخارج تبدو مستحيلة من حقبته الكاسدة.

إنّ هذا المحور يأتي ترجمة لنجاعة المناهج المعتمدة في تكوين الأشخاص أولاً، ثم تكوين الأفكار المتولدة بدورها عن المرحلة السابقة، والمنسجمة مع مبادئها، وأهدافها الرامية إلى إحداث نقلة نوعية في مسار المجتمع الباحث عن نفسه، بعد الإعداد، والتوجيه السليم القائم على مناهج علمية كفيلة بوضع المقدمات تمهيداً للنتائج.

فالتوجيه عند "مالك بن نبي": «قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت، فلم

1- "مالك بن نبي" .. تأملات ص 221.

تحقق هدفها حين زاحمتها قوى أخرى صادرة عن نفس المصدر متجهة إلى نفس الهدف! فالتوجيه هو إدارة ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية، والإنتاجية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين...»¹

ثمة عنصر مهم ثمنه "مالك بن نبي"، عنصر قائم على علاقة النجاعة بالتوجيه، حتى لا يحيد البناء عما رسم له في حدود الفلسفة العامة التي يقوم عليها، لأنّ تغييب التوجيه يكون في غير صالح المجتمع بما يفتح من هوامش لا يمكن التحكم فيها، أو مراقبتها، وقد تصبح تهديداً موقوتاً من شأنه أن يزلزل القواعد العامة، والأساسية التي يقوم عليها أي مشروع.

لقد وصل المشهد الحضاري في مرحلة تكوين عالم الأشياء إلى آخر مقتضيات الإقلاع والنهضة - في نظر بن نبي - ولا بد عندها من منطق عملي رأس ماله الفاعلية اللازمة، والمفروضة في نفس الوقت، وإلا كان المشهد خالياً من كل بؤادر النهضة.

«إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من الالفاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهائلة.

وإذا ما أردنا حصرًا لهذه القضية، فإننا نرى سببها الأصيل في اعتقادنا، الضابط الذي يربط بين عمل، وهدفه، بين سياسة، ووسائلها بين ثقافة، ومثلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا»²

1- "مالك بن نبي" .. شروط النهضة ص78.

2- المصدر نفسه ص96.

فالمنطق العملي فلسفة نجاح قائمة على فعل الاستفادة من الأخطاء السابقة أولاً، ثم السعي العملي المباشر إلى تثبيتها كمفهوم صارم الدلالة، والبعد، حتى يتسنى القضاء على غول الالفاعلية، فهو أهم المعوقات التي تقف في وجه أي مشروع خاصة في البيئة العربية الإسلامية نظراً لغياب رؤيا شاملة، وفعالة للقضاء على الركود الذي لن يكون إلا بتغليب المنطق العملي المؤسس على فرضيات مدروسة، ومقننة، وموجهة في الوقت ذاته، لتكون بمثابة الدعم المتنامي، ونقطة القوة لأي مشروع يقول "ابن نبي": «إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع، والتاريخ، وإذا سكن الإنسان، سكن المجتمع، والتاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ.

فنرى المجتمع حيناً يزخر بوجود النشاط، وتزدهر فيه الحضارة وأحياناً نراه ساكناً لا يتحرك يسوده الكساد، وتغمره الظلمات.. على أنني حينما أرى في حركة التاريخ، حركة الإنسان وفي ركوده، فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تتصنف تحت عنوان ¹الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ»

فالاستدلال هنا تاريخي محض، وقوته من قطيعة النتائج المتوصل إليها، فقد أثبت التاريخ بما لا يدع مجالاً للريبة أن النجاعة المطلوبة لا تتحقق، ولا تخرج عن إطار الأولوية المكرسة للمنطق العملي كصفة ثابتة في أي مشهد نهضوي ناجح.

إن الإرادة التي يملكها الفرد قابلة للتجديد، والتحفيز المتواصل بما تقتضيه المتطلبات الراهنة، وفق المنطق السابق بحيث يصبح الفرد الذي تم تكوينه كفكرة، وكمشروع قادراً على تقمص هذا

1- "مالك بن نبي" .. تأملات ص 125.

الدور وأدائه بصورة طبيعية نابعة من الشعور الداخلي، والتفاعل الإيجابي الصادق باعتباره مكونا ثابتا في ذات هذا الفرد المنسجم مع المسار والخطوط العامة، والعريضة الموضوعية على خلفية سياسية أو نظام، أو رؤيا قبلية حسب طبيعة المجتمع، وخصائصه، ونمط تفكيره.

فالمرحلة الأخيرة من مراحل التشيؤ الحضاري هي حركية العمل والنتاج، فالعمل ضرورة، وواجب يكرس مبدأ التغيير من جهة، ويحقق ذات الإنسان من جهة أخرى نظير حاجاته، ونظامه الحياتي القائم على ضرورات بيولوجية، واجتماعية من شأن العمل إشباعها وتحقيقها.

فالإنسان يعمل لإثبات ذاته، وإشباع حاجته و« بداع من طبيعته من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة، ولكن التكييف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة بحيث يكون العمل على الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية، ومن هذا التركيب ينتج نظام الأفعال الاجتماعية المنعكسة»¹

إن شعور الفرد بضرورة إنتاجه لما يستهلكه، وتجاوز ذلك إلى تصدير الفعل الإنتاجي، هو ما يطبع الفرد المنشود الذي يكون عنصر النهضة الحقيقية، وليس العكس، فالاعتماد على ما هو آت، أو ما هو جاهز يشكل لنا في النهاية مجتمعا مستهلكا لا منتجا، وهو حال الأمة العربية والإسلامية جمعاء (فالويل لأمة لا تأكل مما تنتج) وعليه، فمن الأبعاد الحضارية المهمة للشروع في تغيير، أو تجسيد نهضة ما، البعد الهادف

¹ - "مالك بن نبي" ميلاد مجتمع. ص 65.

إلى تمرس الرغبة في الاكتفاء، والاعتماد على النفس لإشباع مختلف الحاجات بدل الانتظار والتقاعس المفضي إلى إلغاء محور تكوين عالم الأشياء من موروثنا الحضاري المنشود، وإنما الغاية الأساسية أن نمكن لذواتنا من خلال الإيمان بطاقات الأمة، إمكانيات كل فرد من أفرادها. «فالإمكان الاجتماعي هو الذي يقرر مصير الشعوب، والمجتمعات، والدول»¹

والواقع أثبت أن الإرادة الواعية طريق النجاة، والنجاح، ما تم توجيهها، وتحفيزها.

«فكل شعب يحب أن يصنع تاريخه بوسائله الخاصة، وبأيديه ذاتها، والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء، والأشخاص، والأفكار المتاحة، في ذلك الحين بالذات، أي في نفس الأوان الذي يواكبه عملية إنجازه»²

الانطلاقة ذات الخاصية المحلية للموروث الاجتماعي هي البعد الآخر للبناء الحضاري متحررة من التأثيرات الجانبية أو الأجنبية الواغلة في المادية، والتهجين والباعثة على الانبهار المشبوه الذي كلف المجتمع العربي والإسلامي بصفة عامة ركودا اقتصاديا مهولا، فأصبحت أسواق هذه الأمة مرتعا للمنتجات الأجنبية، وأحدثت بذلك شرخا في الطبقة العاملة، وبالتالي شيوع البطالة المقنعة، ووصلنا إلى مرفأ التكديس بدلا من التكوين الناجع، والإنتاج المؤسس على رؤى من صميم التجربة الاجتماعية، فالحضارة تكوين وليست تكديسا كما يقول

1- "مالك بن نبي" .. المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر دمشق 1979، ص 76.

2- "مالك بن نبي" .. آفاق جزائرية ص 161.

"ابن نبي": «إنّ علينا أن ندرك بأنّ تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة.. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، ليست المنتجات هي التي تكون النتائج، وليس العكس، فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة، فإننا سنبقى ألف سنة، ونحن نكدس، ثم لا نخرج بشيء»¹

إنّ المرجعية المعززة للفرد المنتج في هذا الكم الهائل من المرجعيات، يفترض أن تكون مصبوغة بصبغة المجتمع الذي تنطلق منه، ومطبوعة بشخصيته حتى لا تنتج ما لا يتلاءم والخاصية العامة للمجتمع، أو المحيط الذي نعيش فيه. فالشخصية الإنتاجية مرادف كمي لمقتضيات النوعية، والمنطق العملي، وهذا التطابق بالمفهوم الاقتصادي للكلمة يجعل فعل التكوين، الإنتاج، الإبداع الصناعي أمراً ممكناً، ومتوقفاً في أي حقبة من حقبات البناء، والممارسة الإنتاجية المنبثقة عن مرجعيات لها أصولها، ورصيدها، وقواعدها التي تقوم عليها، كمبدأ ثابت لا يتغير، ولا يحيد، ولا يتأثر بما تحمله الحضارات الأخرى وإن استفاد من بعض تجاربها، بل يؤثر فيها إذا ما تمسك الفرد المنتج بخاصيته، وأسلوبه في العمل، وفلسفته في البناء ضمن الحركية العامة لحضارته المتوثبة، والمنطلقة منه أساساً كخيار لا بديل عنه، بل أنه أمر مرفوض، فالحضارة جوهر ممتد وفضاء عملي لتكريس، وترجمة الانسجام الحاصل بين مجموعة الفئات، والمعطيات تتحرك من منظور شامل ومستتب وحدة، وهوية، وآفاقاً وتواصلًا.

¹ - "مالك بن نبي" .. تأملات ص 167.

«إنّ الحضارة التي تميز بخصائصها مجتمعا عن آخر تشكل نسيجاً منسجماً في وسط أبناء المجتمع الواحد، مهما كانت الفوارق في الدرجة العلمية، أو الإمكانيات المادية، أو النوعية، أو المهنة فوحدة النمط الحضاري هي الدافع لعمل أبناء المجتمع الواحد ليس كل لذاته، بل في صيغة تعاونية جماعية الأهداف، لأنّ النهوض والتقدم يكون شاملاً، ولا يتحقق تقدم حضاري لأجزاء في مجتمع سمته التخلف»¹

إنّ استرجاع الدور العالمي لحضارتنا ضرورة ملحة، وعاجلة لأنّ مقومات العودة ليست بمنأى عن إمكانيات الأمة، وطاقاتها، وقدراتها في مختلف المجالات العلمية، والعملية، ينقصها فقط الإيمان بهذه القدرات وتحريك فعل الإرادة الواعية، والجامحة إلى تكريس هذا الدور بعد الاستفادة طبعاً من أخطائنا، وتجاربنا السابقة، وحتى هزائمنا فالهزيمة ليست قدراً محتوماً، ولا أثراً خالداً إنما العبرة في أنّ الهزيمة تولد الرغبة في الانتصار وتذكي الشعور المتنامي والدافع إلى السعي الحثيث نحو تحقيق الغاية المثلى، والحضارة المرجوة بما تحمله من إشراقات في صالح الأمة كمرحلة أولى وما تحمله من بشائر للإنسانية جمعاء انطلاقاً من مرجعياتها الفكرية، والدينية المتجذرة في صميم التجربة البشرية التواقفة إلى تأكيد الذات والتفوق على الظروف من منطلق أنها هي التي تصنع الظروف المحيطة، والأسباب ولا تصنعها الظروف المنكسة لأي فعل إنساني راغب في تغيير الوضع أو تكسير المعوقات التي تقف في وجه المحاولات والمبادرات الناجحة دائماً، وبذلك نكون قد تجاوزنا المراحل

¹ - المصدر نفسه ص 162.

الصعبة إذا تخطينا هذه الحواجز «فمن الواجب ألا توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثا نحو الحضارة الأصيلة.. وإنما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويا يستغله الرجل الوحيد، أو يضلله الشيء الوحيد، بل ليكن سيرنا علميا، عقليا، حتى نرى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر تتنظم جميع أشتائها وأفكارها، وروحها، ومظاهرها، وقطب يتجه نحو تاريخ الإنسانية وأن قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة التناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم، وذلك بتخطيط ثقافة شاملة يحملها الغني، والفقير، والجاهل، والعالم حتى يتم للأنفس استقرارها، وانسجامها مع مجتمعها، ذلك المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازنه الجديد»¹

إن الحضارة النموذج عند "مالك بن نبي" هي تلك الحضارة المتأصلة في مرجعياتها، وأسسها، المكتسبة لمناعة ضد التغريب، أو المسخ، المنبثقة عن محفز ديني يتوافق والطموحات الاجتماعية والمساعي ذات الأبعاد الإنسانية في صياغها الحضاري الناشئ والمنتظر، هي مشهد آخر مختلف، ومتألق ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومتفتحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار فيها، أو محاولة تقليدها، والانسلاخ عن هويتنا، ومرجعياتنا.

لقد وضع "مالك بن نبي" لهذا المشروع الضخم محاور ثلاثة يكتمل بتفاعلها البناء، ويتجسد حلم الأمة في استعادة الدور العالمي لهذه الحضارة التي لا تزال تمثل المرجعية لكثير من الدول

¹ - "مالك بن نبي" .. شروط النهضة ص 159

الفهرس

09	- إهداء
11	- قبل البدء
	الفصل الأول
21	1- "مالك بن نبي" .. البداية والمسار
25	2- "مالك بن نبي" .. في عيون الآخرين
	الفصل الثاني
33	1- الفكر البنّابي وموقعه من الفكر الإسلامي المعاصر
50	2- الإسلام وعلاقته بالحضارة في الفكر البنّابي
	الفصل الثالث
69	1- مفهوم الحضارة وفلسفتها عند "مالك بن نبي"
73	2- شروط الحضارة ومحاورها وأبعادها
78	- تكوين عالم الأشخاص
81	- تكوين عالم الأفكار
90	- تكوين عالم الأشياء
	الفصل الرابع
101	ومضات حضارية من الفكر البنّابي
102	1- الإنسان ومعركة الحضارة
108	2- الأفكار .. ذلك البعد الحضاري المفقود
114	خاتمة
116	المصادر ، والمراجع
118	الفهرس

تقبلوا منا تسليماً عاماً على كل من سألنا عن أمرنا

بما نرجو - يرحم الله من سألنا

021 23 07 24 : هاتفنا

021 23 07 07 : هاتفنا

عالمه ربه عليه - بما نرجو - يرحم الله من سألنا

تمت الطباعة بـ:
دار الحضارة للطباعة والنشر
- الجزائر -

هاتف/فاكس: 021 44 34 41

... لقد توصل "ابن نبي" إلى مجموعة من التعليقات، والنتائج المنطقية، والرؤى الهادئة والمتزنة، في نفس الوقت تتخذ المنهج العلمي مسارا ثابتا لها، ولا تلغي النظرات الفكرية الأخرى سواء كانت عربية إسلامية، أو غربية، وكثيرا ما ضرب لنا أمثلة من هنا، وهناك تبرر انفتاح الفكر "البنابي" على الأفكار، والحضارات الأخرى بعيدا عن التعصب، والفردانية، فقدم بذلك مشروع الحضاري الضخم كبديل لفرضيات أثبتت فشلها، أو بقيت حبيسة فلسفة هجينة تفتت الأفكار الخلاقة، وتنبذ كل دعوة إلى التغيير، والمبادرة.

من مقدمة الكتاب

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع أحمد باي- الجزائر
هاتف: 25 / 24 07 23 (021)
فاكس: 07 07 23 (021)
ص ب: 575 الجزائر - ديدوش مراد